شرح مختصر لأذكار وأدعية الصلاة من التكبير إلى التسليم

من كتب

فضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

جمع وترتيب

مساعد بن عبد الله السلمان

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة

الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الله . أما بعد :

فهذا شرح مختصر لأذكار وأدعية الصلاة من التكبير إلى التسليم، جمعته لك - أخي القارئ الكريم - من كتب شيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، رجاء الانتفاع به .

❋❋❋

من أذكار وأدعية الصلاة

باب ما جاء في تكبيرة الإحرام

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كبر للصلاة سكت هنيهة ....» الحديث، متفق عليه .

الشرح

قول أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كبر للصلاة سكت هنيهة» يريد بذلك تكبيرة الإحرام، ومعنى «كبر» أي قال «الله أكبر» ومعناها: أنَّ الله تعالى أكبر مِن كلِّ شيء في ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه، وكلُّ ما تحتمله هذه الكلمة مِن معنى.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧] وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

[الأنبياء: ١٠٤] ومن هذه عظمته فهو أكبر مِن كل شيء. وقال الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧﴾ [الجاثية: ٣٧]. فكلُّ معنى لهذه الكلمة مِن معاني الكبرياء فهو ثابتٌ لله عَزَّوَجَلَّ.(١)

❁❁❁

(١) انظر الشرح الممتع ٣/ ٢٢. وشرح عمدة الأحكام ١/ ٦٧٧.

﴿ باب ما جاء في أدعية الاستفتاح ﴾

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كبر للصلاة سكت هنيهةً قبل أن يقرأ، فسألته، فقال: «أقول: اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد». متفق عليه.

الشرح

قوله: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب»، «اللهم» يعني يا الله، «باعد بيني وبين خطاياي» أي: اجعلها بعيدة عني، «كما باعدت بين المشرق والمغرب» وهذا أبلغ ما يكون في البُعد كما قال الله تعالى في القرآن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝٣٨﴾ [الزخرف: ٣٨] باعد بيني وبينها حتى لا أفعلها؛ لأنها بعيدة المنال.

و«الخطايا» جمع خطيئة، وهي ما خَطئ به الإنسان؛ أي: فعله عن عمد، وأما ما أخطأ به فهو ما فعله عن غير عمد.

«اللهم نقني من خطاياي كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس»

هذه الجملة في الخطايا المتلبس بها.

وقوله: «نقني من خطاياي» أي: خلصني منها، «كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس». وخصَّ الثوب بالأبيض؛ لأن الأبيض يظهر عليه أثر الدنس أكثر مما يظهر على غيره، ولهذا تجد الإنسان إذا لبس الثياب السوداء في الشتاء يغسل الثوب بعد شهر تقريبًا، بينما إذا لبس الثياب البيض في الصيف يغسله كل أسبوع أو أقل؛ لأن الأبيض يؤثر فيه الوسخ أكثر من غيره، ويظهر فيه أثر الوسخ أكثر من غيره، فلهذا قال: «كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس» يعني الوسخ، فهذه الجملة تنقية للإنسان من الذنوب.

قال: «اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبَرَد» وهذه الجملة في غسل أثر الذنوب أي أن يزيل الأثر نهائيًّا فهنا:

- خطايا لم يتلبس بها الإنسـان، يقول فيها: «باعد بيني وبين خطاياي».
- خطايا تلبس بهذا يقول فيها: «اللهم نقني».
- خطايا تنقى منها وتخلص وتركها، فيحتاج إلى غسل يزيل أثرهـا بالكليـة يقول فيها «اللهم اغسلني»، وهـذا ترتيب طبيعي مناسب للواقع.

وقوله: «بالماء» الماء معروف، «والثلج»: الثلج: تجمد الماء، «والبَرَد» البرد: هو الثلج النازل من السحاب.

وكونها تُغسل بالماء ليس فيها إشكال؛ لأن الماء مزيل، لكن أيهما أشد إزالة: الماء الحار أو الثلج والبرد؟

الجواب: الماء الحار أشد إزالة وأسرع، إلا أن القضية ليست قضية ثوب يُغسـل لكنها قضية ذنـوب، والذنوب في الأصل حارة عقوبتها النار، والشيء إنما يُداوى بضده، فلذلك ذكر الثلج وذكر البرد.(١)

(١) انظر الشرح الممتع ٣/ ٤٤. وفتح ذي الجلال ٣/ ٩٢. والشرح المختصر ١/ ٤٨٤. وشرح عمدة الأحكام ١/ ٦٧٧. والتعليق على صحيح البخاري ٣/ ٣٤٤.

فصل

وعن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك ولا إله غيرك». رواه مسلم بسند منقطع، ورواه الدارقطني موصولًا وموقوفًا.

الشرح

قوله: «سبحانك» أي: تنزيهًا لك يا ربِّ عن كُلِّ نَقْصٍ، والنَّقصُ إما أن يكون في الصِّفاتِ، أو في مماثلة المخلوقات، فصفاتُه التي يتَّصف بها منزَّه فيها عن كُلِّ نقص، يتَّصف بالعِلمِ الكاملِ، وبالحياةِ الكاملةِ، وبالسَّمْعِ الكامل، وبالبصر الكامل ... وهكذا جميع الصفات التي يتَّصف بها هو فيها مُنزَّه عن النَّقْصِ، كذلك مُنزَّه عن أن يوصف بصفة نَقْصٍ محضة، مثل أن يوصف بالعجز، أو الظُّلم، أو ما أشبه ذلك.

مُنزَّه عن مماثلة المخلوقات، ولو فيما هو كمال في المخلوقات فإن الله تعالى مُنزَّه عنه، فمُنزَّه عن أن تكون صفاتُه الخبريَّة كصفات

المخلوقيـن، مثل: الوجه، واليدين، والقـدم، والعينين، ومُنزَّه أن تكـون صفاتُه الذاتية المعنوية كصفـات المخلوقين، فعلمُه ليس كعِلْمِ المخلـوق؛ لأنَّ عِلْمَ المخلوق كلُّه نَقْصٌ، نَقْصٌ في ابتدائِه؛ لأنَّه مسبوقٌ بجهلٍ، وفي غايته؛ لأنه ملحوق بالنسيان، وفي شُمولِه؛ لأنَّه قاصرٌ، حتى رُوحك التي بين جنبيك لا تعلم عنها شيئًا. كما قـال تعالـى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥] حتـى ما تريد أن تفعله غداً لسـت على يقينٍ مِن أنْ تفعلَـه، لكنك ترجو وتؤمِّل، وإلاّ فلا تعلم نفسٌ ماذا تكسب غداً، إذاً؛ هذا نَقْصٌ عظيمٌ في العِلْمِ، أما الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّه كاملُ العِلْمِ.

كذلـك أيضـًا لا يماثـل المخلـوق في صفاته الفعليـة، مثل: الاسـتواء على العرش، والنُّزول إلى السَّماءِ الدُّنيا، والمجيء إلى الفصل بين العباد، والرِّضى والغضب، وما أشبه ذلك، وإنْ وافقها في الاسم، فالاسـمُ هو الاسـمُ، ولكن المُسـمَّى غير المُسـمَّى، فالصِّفةُ هي الصفة، ولكن الموصوف غير الموصوف؛ فلا تماثل

بين الخالق والمخلوق. إذاً؛ يُنزَّه اللهُ عن ثلاثة أشياء:

١. عن النَّقصِ في صفات الكمال.

٢. عن صفات النَّقصِ المجردة عن الكمال.

٣. عن مماثلة المخلوقين.

وتمثيله بالمخلوقين نَقصٌ؛ لأنَّ تسويةَ الكاملِ بالنَّاقصِ تجعله ناقصًا قال الشاعر:

أَلم تَرَ أنَّ السَّيفَ ينقصُ قَدْرَه
إذا قيل إنَّ السَّيفَ أمضى مِن العَصَا

إذا قلت: عندي سيفٌ عظيم، ومَدحته مدحًا كثيراً، ثم قلت: هو أمضى مِن العصا؛ فإنه يهبط هبوطًا عظيمًا، ولا ترى لهذا السَّيفِ قَدْراً؛ لأنك نفيت أن يكون مماثلاً للعصا، وسيفٌ يمكن أن يَتصوَّرَ الإنسانُ مماثلته للعصا ناقصٌ لا ريب في ذلك.

أما «الحمد» فهو: وصفُ المحمود بالكمال، الكمال الذَّاتي والفعلي، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كاملٌ في ذاته، ومِن لازمِ كمالِه في ذاتِه أن يكون كاملاً في صفاته.

كذلك في فِعلِه، فَفِعْلُه دائرٌ بين العدل والإِحسان؛ لا يمكن أن يظلم، بل إما أن يعامل عبادَه بالعدلِ، وإما أن يعاملَهم بالإِحسان، فالمسيءُ يعاملُه بالعدل كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] لا يمكن أن يزيد. والمحسن يعامله بالفضل كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فَفِعْلُه عَزَّوَجَلَّ دائرٌ بين الأمرين، ومَن كان فِعْلُه دائراً بين هذين الأمرين: العدل والفضل، فلا شَكَّ أنه محمودٌ على أفعالِه، كما هو محمودٌ على صفاته.

إذاً؛ جمعتَ بين التَّنزيهِ والكمالِ في قولك: «سُبحانك اللَّهُمَّ وبحمدِك» فعلى هذا؛ فالواو تفيد معنى المعيَّة، يعني: ونزَّهتُك تنزيهًا مقرونًا بالحمد.

قوله: «وتبارك اسمك» «اسم» هنا مفرد، لكنه مضاف فيشمل كُلَّ اسمٍ مِن أسماءِ الله.

وهل المراد بالاسم هنا المُسمَّى كما في قوله: «تباركت يا ذا الجلال والإِكرام» ويكون المراد بـ«تَبارَكَ اسمُكَ» أي: تباركتَ،

كقولـه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] والمُسبَّح الله المُسَمَّى، أو أن المراد أنَّ اسمَ الله نفسَه كلَّه بَركة، وإذا كان اسم المُسمَّى بركة فالمُسمَّى أعظم بركة وأشدُّ وأَولى؟

الجواب: الثاني أظهر؛ لأننا نَسْلَم فيه مِن التجوُّز بالاسم عن المُسمَّى، ولأنه يلزم منه تبارك المُسمَّى.

أمثلة مِن بَرَكة اسمِ الله:

لو ذبحتَ ذبيحةً بدون تسميةٍ؛ لكانت ميتةً نجسةً حرامًا، ولو سمَّيت اللهَ عليها لكانت ذكيةً طيبةً حلالاً.

وأيضًا: إذا سمَّيتَ على الطَّعام لم يشاركك الشيطانُ فيه، وإن لم تسمِّ شاركك.

وإذا سمَّيت على الوُضُوء -على قول مَن يرى وجوبَ التَّسمية- صَحَّ وضوؤك، وإن لم تسمِّ لم يصحَّ وضوؤك.

وعلى قول مَن يرى استحبابها يكون وضوؤك أكمل مما لو لم تسمِّ، فهذه مِن بركة اسمِ الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: «وتعالى جدُّك» «تعالى» أي: ارتفعَ ارتفاعًا معنويًا، والجَدُّ: بمعنى العظمة، يعني: أنَّ عظمتَك عظمة عظيمة عالية؛ لا يساميها أي عظمة مِن عظمة البشر، بل مِن عظمة المخلوقين كلهم.

قوله: «ولا إله غيرك» هذه هي كلمةُ التوحيدِ التي أُرسل بها جميعُ الرُّسل كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥] وكما قال ﷺ: «ومَن كان آخرُ كلامِه مِن الدُّنيا لا إله إلا الله دَخلَ الجنَّةَ» فهي أفضلُ الذِّكرِ، ومعناها: لا معبودَ حقٌّ إلا الله. فـ «إله»: بمعنى مألوه، وهو اسمٌ، «لا»: النافية للجنس، وخبرها محذوف تقديره: حقّ، «إلا الله»: «إلا» أداة استثناء، و«الله» بدل مِن الخبر المحذوف، هذا أصحُّ ما قيل في معناها وفي إعرابها.

۞ إذاً معناها: لا معبودَ حقٌّ إلا الله، فهل هناك معبودٌ باطلٌ؟

الجواب: نعم، هناك معبودٌ باطلٌ وهو مَنْ سِوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج: ٦٢]. وهـذه الآلهـة وإن سُـمِّيت آلهة فما هي إلا أسـماء لا حقيقة لها، فهي باطلة كما قال تعالـى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾ [النجم: ٢٣]. وهذه الكلمة لها مقتضى، فمقتضاها التسـليم التـام لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن العبـادة مأخوذة من الـذُّل، ومنه: طريق معبَّد، أي: مذلَّـل مُسـهَّل. فمقتضى هذه الكلمةِ العظيمةِ الاستسـلامُ لله تعالـى ظاهراً وباطنـًا، فأنت إذا قلتها تخبر خبراً تنطِقُه بلسـانك، وتعتقدُه بجَنَانك بأنَّ اللهَ هو المعبودُ حقًّا، وما سواه فهو باطل، ثم تأمَّل كيـف جاءت هذه الكلمةُ التي فيها توحيـد الله بألوهيَّته بعد الثناء عليه؛ ليكون توحيده بالألوهية مبنيًّا على كماله. «سـبحانك اللَّهُمَّ وبحَمْدِكَ، وتباركَ اسمُكَ، وتعالى جَدُّكَ» كُلُّ هذا ثناءٌ على الله بالكمال، ثم قال: «ولا إله غيرُكَ» فيكون هذا السَّـابق كالسبب المبنـي عليه اللاحق، يعني: أنه لكمـال صفاتِك لا معبودَ حقٌّ إلا أنت، ولا إلهَ غيرُك.

وكان عُمـرُ بن الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يسـتفتحُ بهـذا الدعاء، رواه مسلم بسـند فيه انقطاع؛ لكن وصله البيهقيُّ. وعُمرُ أحدُ الخلفاء الراشـدين الذين أُمرنا باتِّباعهم. وقد رُويَ عن النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مرفوعـًا.(١)

❋❋❋

(١) انظر الشرح الممتع ٣/ ٤٢ . وفتح ذي الجلال ٣/ ١٠٠ . والشرح المختصر على بلوغ المرام ١/ ٤٩٠ . والتعليق على المنتقى ١/ ٣٣ .

فصل

📖 وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنـه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك لـه وبذلك أمرت وأنا من المسـلمين، اللهم أنت الملك لا إلـه إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك ظَلَمْتُ نَفْسِـي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِـي، فَاغفِرْ لِـي ذُنُوبِي جَمِيعًـا، إِنَّهُ لَا يَغْفِـرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَـيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَـيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَـعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» رواه مسلم.

وفي رواية له: «إن ذلك في صلاة الليل».

الشرح

قولـه: «وجهـت وجهـي للـذي فطـر السـموات والأرض» وجهت، أي: جعلته وجاهه، والمراد بالوجه هنا: الوجه الحسي، والوجه المعنوي.

* أما الوجه الحسي: فهو الوجه الذي في الرأس.
* وأمـا الوجه المعنوي: فهو القلـب، فيكون المراد: وجهت قلبي ووجهي.

وقولـه: «للـذي فطر» هذا بيـان الجهة التي وجههـا إليه وهو الـذي فطر السـموات والأرض، يعني الله عَزَّوَجَلَّ كمـا قال تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]. قال أهل العلم: والفطر هو فعل الشـيء أولًا، فيكون معنـى ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقهما على غير مثال سبق، يعني أول ما خلقت السموات والأرض على هذه الصورة، وقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والسـموات سـبع بنص القرآن والسـنة، وأما الأرضون فهي أيضًا سـبع على ظاهر القرآن وصريح السنة.

وقولـه: «حنيفًا» أي: مائلًا عن الشـرك، فالاسـتقامة في قوله: «وجهت وجهي» وعدم الميل إلى الشرك في قوله: «حنيفًا»، وأكد ذلك بقوله: «وما أنا من المشركين».

قولـه: «إن صلاتـي» المـراد بـ«صلاتـي»: الصـلاة المعروفة المعهودة شرعًا.

قوله: «ونسـكي»؛ قيل المراد بذلك: النسـيكة وهي الذبيحة، فالمراد بالنسـك: الذبائح التي يتقرب بها الإنسـان إلى الله عَزَّوَجَلَّ، واسـتدل أصحاب هذا القول بقولـه تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: ٢]، فذكر النحر بعد الصلاة.

وقيل المراد بالنسك: العبادة، فعلى الأول يكون عطف نسك على صلاة من باب عطف المتباينين، وعلى الثاني: من باب عطف العام على الخاص.

فـإن قال قائـل: أيهما أولـى أن نقول: المراد بالنسـك جميع العبادات، أو المراد بالنسك الذبيحة؟

فالجواب: الأول أولى؛ لأنه يشمل الذبيحة وغيرها، وكلما كان المعنى أشمل وأعم فهو أولى.

قوله: «ومحياي ومماتي» أي أن حياتي ومماتي أمرهما إلى الله عَزَّوَجَلَّ، لا أموت إلا بأمر الله، ولا أحيا إلا بأمر الله .

قوله: «لله» اللام هذه للإخلاص .

قوله: «رب العالمين» أي: خالق العالمين، مالكهم ومدبرهم، و العالم : كل ما سوى الله فهو عالم من الإنس والجن والملائكة وغيرهم، وسموا عالماً؛ لأنهم علم على خالقهم عَزَّوَجَلَّ، وجمعوا باعتبار الأجناس والأنواع، فإنهم أجناس وأنواع.

قوله: «لا شريك له» هذا تأكيد للنفي .

قوله: «وبذلك» أي: بما ذكر من الإخلاص، واجتناب الشرك.

قوله: «أمرت» والآمر هو الله عَزَّوَجَلَّ، ولم يسم للعلم به، كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ٢٨﴾ [النساء: ٢٨] حيث لم يسم الخالق للعلم به.

قوله: «وأنا أول المسلمين» أورد بعض العلماء إشكالًا على هذا وقال: كيف يكون أول المسلمين وقد سبقه أمم وأنبياء ورسل كلهم مسلمون؟ فقيل المعنى: أول المسلمين من هذه الأمة فتكون الأولية نسبية؛ أي باعتبار هذه الأمة. وقيل إن الأولية هنا: أولية صفة لا أولية زمن، يعني: أنه أسبق الناس إلى الإسلام، وعلى هذا المعنى فلا نحتاج إلى أن نقول: إن الأولية نسبية؛ لأننا نعلم أن أشد الناس انقيادًا وإسلامًا لله تعالى هو الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن المعلوم أننا إذا قلناها: «وأنا أول المسلمين» لا يمكن أن نريد أول المسلمين زمنًا، لأن هذا يكذبه الواقع، لكنك تقر بأنك أول من يؤمن بهذا ويسلم لله عَزَّوَجَلَّ، سبقًا حاليًا لا زمنيًا.

قوله: «اللهم أنت الملك» اللهم، أي: يا الله هذا أصلها، فحذفت ياء النداء وعوض عنها الميم، وذلك لكثرة الاستعمال، وللتيمن بذكر الله عَزَّوَجَلَّ قبلت أداة النداء وعوضت عنها الميم، قالوا: لأنها دالة على الجمع، فكأن الداعي جمع قلبه على الله، وكانت في الآخر تيمنًا بالبداءة باسمه جَلَّ وَعَلَا، وعلى هذا فنقول: «اللهم» منادي مبني على الضم في محل نصب.

قوله: «أنت الملك» الملك: يعني ذا الملك التام والسيطرة التامة، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ملك الملوك لا مالك إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وملكه جامع بين الملك الذي هو مطلق التصرف، وبين الملك الذي هو السيطرة التامة، ولهذا جاء في سورة الفاتحة قراءتان: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ ﴾ و{ملك يوم الدين}، فإذا ضممت القراءتين بعضهما إلى بعض نتج من ذلك أنه مالك ملك .

وفي الدنيا قد يكون الإنسان ملكًا وليس بمالك، وليس له حق التصرف، وقد يكون مالكًا وليس بملك، فالإنسان يملك دابته وليس بملك .

قوله: «لا إله إلا أنت» أي: لا معبود حق إلا أنت، إذاً: «إله» بمعنى: مألوه، وأما ما عبد من دون الله فهو وإن سمي إلهًا فليس بإله؛ لأنه ليس بحق ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢ ﴾ [الحج: ٦٢].

قوله: «أنت ربي وأنا عبدك» هذا من تحقيق الربوبية والإلوهية، فتحقيق الربوبية في قوله: «أنت ربي»، والإلوهية في قوله: «وأنا

عبدك» لأن العبد لابد أن يتعبد لمعبوده بما أراد معبوده .

قوله: «ظلمت نفسي واعترفت بذنبي» الله أكبر يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ظلمت نفسي واعترفت بذنبي» وظلم النفس إما بتقصير في واجب، أو بفعل محرم.

قوله: «واهدني لأحسن الأخلاق» أي هداية علم وإرشاد، وأحسن الأخلاق: يعني أكملها وأتمها، والأخلاق: جميع خلق وهو الصفة الباطنة، والخَلْق الصفة الظاهرة، فللإنسان خَلْقٌ وخُلُق، فالخُلُق في الباطن والخَلْق في الظاهر، وهذا يشمل الأخلاق فيما بين الإنسان وبين ربه، وفيما بينه وبين العباد .

قوله: «لا يهدي لأحسنها إلا أنت» هذا إظهار افتقار لله عَزَّوَجَلَّ وتوسل له بهذه الصفة، وهي أنه لا يستطيع أحد أن يهدي لأحسنها إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: «واصرف عني سيئ الأخلاق لا يصرف عني سيئها إلا أنت» عكس ما سبق، «اصرف عني سيئ الأخلاق» أي: بحيث لا أهتدي لها، ولا أتلبس بها، «لا يصرف عني سيئها إلا أنت».

قولـه: «لبيـك» أي إجابة لك، وجـاءت بصيغـة التثنية، فهل المـراد الدلالة علـى التكرار، أو المراد حقيقـة التثنية ؟ الأول هو المـراد، أي أن المعنـى: إجابة لـك بعد إجابة، مثـل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤]. المراد: مطلـق التعدد، أي كرة بعد كرة، فيشـمل إلى ما شاء الله، ومعنى «لبيك»: إجابة، وهو واضح في كلام النـاس، إذا دعـاك رجل تقـول له: لبيك، وقيـل المعنى: إقامة، من قولهم: ألب بالمكان إذا أقام فيه، ولا مانع من أن نقول: إجابة لك وإقامة على طاعتك، فيكون شاملًا للمعنيين .

قوله: «وسعديك» أي إسعادًا بعد إسعاد، والمراد بـ«سعديك» أي: معونتك، أو إسـعادك أن أكون سعيدًا، ونقول فيه كما قلنا في «لبيك» أن المراد بذلك: مطلق التكرار لا التثنية.

قوله: «والخير كله في يديك» الخير في الدنيا والآخرة كله في يدي الله عَزَّوَجَلَّ، هو الذي يقدره، وهو الذي يعطيه من شاء ويمنعه من شاء على ما تقتضيه حكمته وعدله.

قوله: «والشر ليس إليك» يعني أن الشر لا ينسب إلى الله عَزَّوَجَلَّ

أبداً؛ لأن أفعاله كلها خير وليس فيها شرٌّ بوجه من الوجوه، حتى ما يكون من المخلوقات من الشرور فإنه لا يكون شرًّا بالنسبة لإيجاد الله له .

قوله: «أنا بك» أي: وجودي بك، وقوتي بك، وعملي بك، فالباء هنا للاستعانة .

قوله: «وإليك»: الغاية والقصد، ففي الأول استعانة، وفي الثاني إخلاص، إليك وحدك لا أرجع لغيرك .

قوله: «تباركت» تباركت أي: حلت البركة فيك، بمعنى: أن اسمك مبارك وذكرك مبارك، وكلامك مبارك، وكل ما يصدر عن الله عَزَّوَجَلَّ فإنه مبارك .

وقد فسرها الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: «تباركت» أي أن البركة تُنال بذكرك، وهذا لاشك أنه داخل في المعنى لكن المعنى الأول أعم .

قوله: «وتعاليت» أي: ترفعت مكانًا ومنزلة، وهو أبلغ من قول: علوت؛ لأن في: تعاليت إشارة إلى الترفع، أي ترفعه عن كل سفول

ونزول سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ جلا وعلا.

قوله: «أستغفرك» أي أطلب مغفرتك، والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه .

قولـه: «وأتـوب إليـك» أي أرجـع إليـك مـن معصيتك إلى طاعتك، وهي بمعنى: أسألك التوبة، فهي خبر بمعنى الدعاء .

❊❊❊

مسألة: هل هناك أدعية أخرى يُستفتح بها؟

الجواب: نعم؛ فيه أنواع ـ ولشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة في أنواع الاستفتاحات.

وفيه أيضًا استفتاح خاص بقيام الليل، وهو قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم رب جبرائيل ومكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». فهذا الاستفتاح خاص بصلاة الليل.

مسألة: هل يجمع بين أنواع الاستفتاح؟

الجواب: لا يجمع بينها، لأن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجاب أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين سأله بأنه يقول: «اللَّهُمَّ باعِدْ بيني وبين خطاياي»... إلخ. ولم يذكر «سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدِك» فدلَّ على أنه لا يجمع بينها.

ثم هل يقتصر الإنسان على نوع منها، أو يفعل هذا تارة وهذا تارة؟

نقول: الأفضل أن يفعل هذا تارة وهذا تارة، وأما من تمسك بنوع منها واقتصر عليه فهذا على خير لاشك، لكن تمام التأسي بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يفعل هذا تارة وهذا تارة.

وفي فعل العبادات المتنوعة على وجوهها فوائد منها:

* الفائدة الأولى: تمام التأسي بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
* الفائدة الثانية: أحْضَر للقلب؛ لأنه لو لزم شيئًا واحدًا صار يقوله بغير حضور قلب.
* الفائدة الثالثة: أحفظ للسُّنة.

* الفائدة الرابعة: التيسير على المكلف؛ لأن بعض هذه الأنواع أيسر من بعض، ومن ذلك التسبيحات دبر كل صلاة مكتوبة فبعضها أيسر من بعض.

* الفائدة الخامسة: أن الإنسان إذا نوع هذه العبادات فإن لكل نوع خاصية ليست في الآخر، لأنها لو اتفقت لكانت نوعًا واحداً، فيكون قد أتى في هذا وبما في هذا .

فهذه عدة فوائد لكون الإنسان يفعل العبادات المتنوعة التي جاءت على وجوه هذه تارة وهذه تارة .(١)

❊❊❊

(١) انظر فتح ذي الجلال والإكرام ٣/ ٧١ . والتعليق على المنتقى ١/ ٢٥ . والشرح الممتع ٣/ ٤٧ .

باب ما جاء في التعوذ للقراءة

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨].

الشرح

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: أردت قراءته، وليس المعنى إذا أكملت قراءته؛ لأنه لا فائدة منها حينئذ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: اطلب منه العوذ، وهو العصمة من شر الشيطان.

وهذه الاستعاذةُ للقراءة، وليست للصَّلاةِ، إذ لو كانت للصَّلاةِ لكانت تلي تكبيرةَ الإِحرامِ، أو قبل تكبيرة الإِحرامِ، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨]. فأمر اللهُ بالاستعاذة مِن الشيطان الرجيم عند تلاوة القرآن.

وفائدةُ الاستعاذة: ليكون الشيطانُ بعيداً عن قلب المرءِ، وهو

يتلو كتابَ الله حتى يحصُل له بذلك تدبّرُ القرآن وتفهّمُ معانيه، والانتفاعُ به؛ لأن هناك فَرْقًا بين أن تقرأ القرآنَ وقلبُك حاضرٌ وبين أن تقرأ وقلبُك لاهٍ.

إذا قرأته وقلبُك حاضرٌ حصل لك من معرفة المعاني والانتفاعِ بالقرآن ما لم يحصُلْ لك إذا قرأته وأنت غافل، وجرّبْ تجدْ.

فلهذا شُرع تقديمُ الاستعاذة على القِراءة في الصَّلاةِ وخارج الصلاة.

بل قال بعض العلماء: بوجوب الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨].

ومعنى: «أعوذ بالله» أي: ألتجئ وأعتصم به؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الملاذُ وهو المعاذُ، فما الفَرْق بين المعاذ والملاذ؟

قال العلماء: الفَرْق بينهما: أن اللِّياذ لطلب الخير، والعياذ للفرار من الشرِّ، وأنشدوا على ذلك قول الشاعر:

يـا مَــنْ أَلُــوذُ بـه فـيـمـا أُؤَمِّــلُــهُ
ومَــنْ أعُــوذُ بـه مِـمَّـا أُحـــاذِرُهُ
لا يَجْبُرُ الـنَّـاسُ عظمًا أنـت كـاسِـرُهُ
ولا يَـهـيضُـونَ عظمًا أنـت جَـابِـرُهُ

وهو يخاطب بشرًا بما لا يليق إلا بالله عَزَّوَجَلَّ لكن هكذا الشعراء يُغالون في القدح، ويغالون في المدح: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧].

ومعنى: ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ الشيطان: اسمُ جنسٍ يشمَلُ الشيطان الأول الذي أُمِرَ بالسُّجود لآدم فلم يسجدْ، ويشمَلُ ذُرِّيَّته، وهو مِن شَطَنَ إذا بَعُدَ؛ لبعده من رحمة الله، فإن الله لَعَنَهُ، أي: طَرَدَه وأبعدَه عن رحمته. أو مِن شَاطَ إذا غَضِبَ؛ لأنَّ طبيعته الطَّيشُ والغضبُ والتسرُّعُ، ولهذا لم يتقبَّل أمْرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالسُّجودِ لآدم، بل ردَّه فوراً، وأنكرَ السُّجودَ له وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ٦١]، والمعنى الأول هو الأقربُ، ولذلك لم يُمنعْ من الصَّرْفِ؛ لأنَّ النون فيه أصليّة.

وأمـا ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾: فهو بمعنى: راجـم، وبمعنى: مرجوم؛ لأن فَعيـلاً تأتي بمعنى: فاعـل، وبمعنى: مفعول، فمِـن إتيانها بمعنى فاعل: سميع، وبصير، وعليم، والأمثلة كثيرة.

ومِن إتيانها بمعنى مفعول: جَريح، وقَتيل، وكسـير، وما أشبه ذلك.

فالشـيطانُ رجيـمٌ بالمعنيين، فهو مرجوم بلعنـة الله - والعياذُ بـالله - وطَـرْدِه وإبعادِه عن رحمته، وهو راجـم غيره بالمعاصي، فإن الشياطين تَؤزُّ أهلَ المعاصي إلى المعاصي أزًّا.(١)

❊❊❊

(١) انظر الشرح الممتع ٣/ ٥٣ . والتعليق على المنتقى ١/ ٤٢ .

فصل

عن أبي سـعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا عند الخمسة وفيه:
«وكان يقـول بعـد التكبير: «أعـوذ بالله السـميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه، ونفخه، ونفثه».

الشرح

قوله: «بعد التكبير» أي بعد تكبيرة الإحرام والاستفتاح، وإنما احتجنـا إلى هذا التقدير لأن الاسـتعاذة إنما تكـون عند القراءة، والقراءة لا تكون إلا بعد الاستفتاح .

قوله: «أعوذ» سبق معناها[(١)].

قوله: «السـميع» أي ذو السـمع، وسـمعُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى نوعان: سمع إجابة، وسمع إدراك، وهو في هذا يشمل الأمرين جميعًا .

قولـه: «العليم» أي ذو العلم، وعلـم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى محيط بكل شـيء جملةً وتفصيـلًا سـابقًا ولاحقـًا وحاضرًا، وآيـات إثبات

(١) انظر ص٢٠.

علـم الله عَزَّوَجَلَّ كثيرة وهو مـن صفات الكمال، وإنمـا ذُكر هذان الاسـمان، لأن «السـميع» بمعنى الإجابة مناسـب تمامًا لقولك: «أعوذ»، و«العليم» كذلك مناسـب لقولك: «أعـوذ»؛ لأنه ما من مُعيذ إلا وعنده علم كيف يعيذ.

قوله: «من الشـيطان الرجيم»، «الشـيطان» هو إبليس، مشتقٌّ مـن شـطن إذا بَعُـدَ؛ لأن الشـيطان بعيد مـن رحمـة الله- والعياذ بـالله-، ويـدل على أنه مشـتق من شـطن أنـه متصـرف كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ١٧﴾ [الحجر: ١٧]. والمراد به الجنس، لا الشيطان المعين الذي أبى أن يسجد لآدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

وقوله: «الرجيم» تصلح أن تكون بمعنى الراجم، وتصلح أن تكون بمعنى المرجوم؛ لأن فعيلًا تأتي بمعنى فاعل، وتأتي بمعنى مفعـول، فإذا كانـت بمعنى الراجـم فالمعنى: أنه يرجـم بني آدم بالمعاصـي ويحملهـم عليها حملًا، وإذا كانـت بمعنى المرجوم فلأنه مطرود بغيض من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: «من همزه ونفخه ونفثه» هذه ثلاثة أشياء: فالهمز: قيل إنه اسم للجنون؛ لأن الشيطان قد يُصيب الإنسان بالجنون.

وأما النفخ: فمن الكِبْر، واشتقاقه ظاهر؛ لأن الإنسان إذا أصيب بالكبر - والعياذ بالله- انتفخ، فالشيطان ينفخ الإنسان حتى يكون مستكبرًا.

وأما النفث: فقيل إنه الشعر؛ لأن الشعراء يتبعهم الغاوون، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ۝٢٢٣﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣] وهناك احتمال في ذهني لكنني ما رأيته، وهو أن المراد: بالهمز: يعني الهمس الخفيف الذي يحمل الإنسان على المعصية، والنفخ: يعني شدة الأمر بالمعصية، والنفث: أشد، لكنني لم أرَ هذا، فيرجع إلى كتب اللغة أو كتب غريب الحديث، أما المشهور فكما تقدم أولًا.[1]

❊❊❊

(١) انظر فتح ذي الجلال والإكرام ٣/ ١٠٥ . والتعليق على المنتقى ١/ ٤٥ .

باب ما جاء في البسملة هل هي من الفاتحة، أم لا؟

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «صليت خلف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم» في أول قراءة، ولا في آخرها» رواه مسلم.

الشرح

قوله: «لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم»: «بسم الله» الجار والمجرور متعلق بمحذوف؛ وهذا المحذوف يقدَّر فعلاً متأخراً مناسبًا؛ فإذا قلت: «بسم الله» وأنت تريد أن تأكل؛ تقدر الفعل: «بسم الله آكل».

قلنا: إنه يجب أن يكون متعلقًا بمحذوف؛ لأن الجار والمجرور معمولان؛ ولابد لكل معمول من عامل.

وقدرناه متأخراً لفائدتين:

* الفائدة الأولى: التبرك بتقديم اسم الله عَزَّوَجَلَّ.

* والفائدة الثانية: الحصر؛ لأن تأخير العامل يفيد الحصر، كأنك تقول: لا آكل باسم أحد متبركًا به، ومستعينًا به إلا باسم الله عَزَّوَجَلَّ.

وقدرناه فعلاً؛ لأن الأصل في العمل الأفعال، وهذه يعرفها أهل النحو؛ ولهذا لا تعمل الأسماء إلا بشروط.

وقدرناه مناسبًا؛ لأنه أدلّ على المقصود؛ ولهذا قال الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ومن كان لم يذبح فليذبح باسم الله»، أو قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «على اسم الله». فخص الفعل.

و﴿ٱللَّهِ﴾: اسم الله رب العالمين لا يسمى به غيره؛ وهو أصل الأسماء؛ ولهذا تأتي الأسماء تابعة له.

و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي ذو الرحمة الواسعة؛ ولهذا جاء على وزن «فَعْلان» الذي يدل على السعة.

و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أي الموصل للرحمة من يشاء من عباده؛ ولهذا جاءت على وزن «فعيل» الدال على وقوع الفعل. فهنا رحمة هي صفته ـ هذه دل عليها ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، ورحمة هي فعله ـ أي إيصال

الرحمة إلى المرحوم ـ دلّ عليها ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾. و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمان من أسماء الله يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وعلى الأثر: أي الحكم الذي تقتضيه هذه الصفة.

والرحمة التي أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقية دل عليها السمع، والعقل؛ أما السمع فهو ما جاء في الكتاب، والسنة من إثبات الرحمة لله ـ وهو كثير جداً؛ وأما العقل: فكل ما حصل من نعمة، أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله.

❋❋❋

مسألة: هل البسملة آية من الفاتحة؛ أو لا؟

في هذا خلاف بين العلماء؛ فمنهم من يقول: إنها آية من الفاتحة، ويقرأ بها جهراً في الصلاة الجهرية، ويرى أنها لا تصح إلا بقراءة البسملة؛ لأنها من الفاتحة. ومنهم من يقول: إنها ليست من الفاتحة؛ ولكنها آية مستقلة من كتاب الله، وهذا القول هو الحق؛ ودليل هذا النص، وسياق السورة.

أما النص: فقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي؛ فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، قال الله تعالى: مَّجدني عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي نصفين؛ وإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ قال الله تعالى: هذا لعبدي؛ ولعبدي ما سأل»، وهذا كالنص على أن البسملة ليست من الفاتحة؛ وفي الصحيح عن

أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «صليت خلف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان؛ فكانوا يستفتحون بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ لا يذكرون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ في أول قراءة، ولا في آخرها». والمراد لا يجهرون؛ والتمييز بينها وبين الفاتحة في الجهر، وعدمه يدل على أنها ليست منها.

أما من جهة السياق من حيث المعنى: فالفاتحة سبع آيات بالاتفاق؛ وإذا أردت أن توزع سبع الآيات على موضوع السورة وجدت أن نصفها هو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ وهي الآية التي قال الله فيها: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»؛ لأن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾: واحدة؛ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾: الثانية؛ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾: الثالثة؛ وكلها حق لله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾: الرابعة - يعني الوسط - وهي قسمان: قسم منها حق لله؛ وقسم حق للعبد؛ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ للعبد؛ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ للعبد؛ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ للعبد.

فتكـون ثلاث آيـات لله عَزَّوَجَلَّ وهـي الثلاث الأولـى؛ وثلاث آيات للعبـد وهي الثلاث الأخيرة؛ وواحدة بيـن العبد وربه وهي الرابعة الوسطى.

ثم من جهة السـياق من حيث اللفظ فإذا قلنا: إن البسـملة آية من الفاتحة لزم أن تكون الآية السابعة طويلة على قدر آيتين؛ ومن المعلوم أن تقارب الآيات في الطول والقصر هو الأصل.

فالصواب الذي لا شك فيه أن البسملة ليست من الفاتحة كما أن البسملة ليست من بقية السور. (١)

❊❊❊

(١) انظر تفسير جزء عم ص ١٠ .

﴿ باب ما جاء في قراءة الفاتحة في الصلاة ﴾

عـن عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالـت: «كان رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسـتفتح الصـلاة بالتكبيـر، والقـراءة: بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾....» الحديث، أخرجه مسلم .

الشرح

تصـور أن الله عَزَّوَجَلَّ يناجيـك وأنـت في صلاتـك، يسـمعك من فوق سـبع سـموات ويـرد عليك، إذا قلـت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾. قـال الله: حمـدني عبـدي، وإذا قلت: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾. قـال: أثنى علي عبدي، وإذا قلت: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، قـال: مجدني عبـدي. والتمجيد: التعظيـم. ونقرأ الفاتحة على أنها ركن لا تصح الصلاة إلا بها، لكننا لا نشعر بهذه المعاني العظيمة، لا نشـعر أننا نناجي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. من يشـعر بهذا يجد لذة عظيمة للصلاة، ويجد أن قلبه استنار بها، وأنه خرج منها بقلب غير القلب الذي دخل فيها به.(١)

(١) انظر مجموع الفتاوى ١٦/ ٨٥ .

قولـه تعالـى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾: ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ وصـف المحمود بالكمال مع المحبة، والتعظيم؛ الكمال الذاتي، والوصفي، والفعلـي؛ فهو كامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله؛ ولابد مـن قيد وهو «المحبـة، والتعظيم»؛ قال أهل العلـم: «لأن مجرد وصفه بالكمال بـدون محبة، ولا تعظيم: لا يسـمى حمداً؛ وإنما يسمى مدحـًا»؛ ولهذا يقع من إنسان لا يحب الممدوح؛ لكنه يريد أن ينال منه شـيئًا؛ تجد بعض الشعراء يقف أمام الأمراء، ثم يأتي لهـم بأوصـاف عظيمة لا محبة فيهم؛ ولكن محبـة في المال الذي يعطونـه، أو خوفـًا منهـم؛ ولكن حمدنا لربنـا عَزَّوَجَلَّ حمد محبة، وتعظيم؛ فلذلك صار لابد من القيد في الحمد أنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة، والتعظيم؛ و«أل» في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ للاستغراق: أي استغراق جميع المحامد.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ اللام للاختصاص، والاستحقاق؛ و«الله» اسـم ربنا عَزَّوَجَلَّ؛ لا يسـمى به غيره؛ ومعناه: المألوه ـ أي المعبود حبـًّا، وتعظيمـًا.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾؛ «الرب»: هو من اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير؛ فهو الخالق، المالك لكل شيء، المدبر لجميع الأمور؛ و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾: قال العلماء: كل ما سوى الله فهو من العالَم؛ وصفوا بذلك؛ لأنهم علم على خالقهم سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ ففي كل شيء من المخلوقات آية تدل على الخالق: على قدرته، وحكمته، ورحمته، وعزته، وغير ذلك من معاني ربوبيته.

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ صفة للفظ الجلالة؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ صفة أخرى؛ و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هو ذو الرحمة الواسعة؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ هو ذو الرحمة الواصلة؛ فـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وصفه؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فعله؛ ولو أنه جيء بـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وحده، أو بـ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ وحده لشمل الوصف، والفعل؛ لكن إذا اقترنا فُسر ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالوصف؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بالفعل.

قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ صفة لـ«الله»؛ و﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ هو يوم القيامة؛ و﴿ٱلدِّينِ﴾ هنا بمعنى الجزاء؛ يعني

أنه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مالك لذلك اليوم الذي يجازى فيه الخلائق؛ فلا مالك غيره في ذلك اليوم؛ و﴿ٱلدِّينِ﴾ تارة يراد به الجزاء، كما في هذه الآية؛ وتارة يراد به العمل، كما في قوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ٦]، ويقال: «كما تدين تُدان» أي كما تعمل تُجازى.

وفي قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ﴾ قراءة سبعية: {مَلِك}، و«الملك» أخص من «المالك».

وفي الجمع بين القراءتين فائدة عظيمة؛ وهو أن ملكه جل وعلا ملك حقيقي؛ لأن من الخلق من يكون ملكًا، ولكن ليس بمالك: يسمى ملكًا اسمًا وليس له من التدبير شيء؛ ومن الناس من يكون مالكًا، ولا يكون ملكًا: كعامة الناس؛ ولكن الرب عَزَّوَجَلَّ مالك ملك.

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾؛ ﴿إِيَّاكَ﴾: مفعول به مقدم؛ وعامله: ﴿نَعۡبُدُ﴾؛ وقُدِّم على عامله لإفادة الحصر؛ فمعناه: لا نعبد إلا إياك؛ وكان منفصلاً لتعذر الوصل حينئذ؛ و﴿نَعۡبُدُ﴾ أي نتذلل لك

أكمل ذلّ؛ ولهذا تجد المؤمنين يضعون أشرف ما في أجسامهم في موطىء الأقدام ذلاًّ لله عَزَّوَجَلَّ: يسجد على التراب؛ تمتلىء جبهته من التراب ـ كل هذا ذلاً لله؛ ولو أن إنسانًا قال: «أنا أعطيك الدنيا كلها واسجد لي» ما وافق المؤمن أبداً؛ لأن هذا الذل لله عَزَّوَجَلَّ وحده.

و«العبادة» تتضمن فعل كل ما أمر الله به، وترك كل ما نهى الله عنه؛ لأن من لم يكن كذلك فليس بعابد: لو لم يفعل المأمور به لم يكن عابداً حقًّا؛ ولو لم يترك المنهي عنه لم يكن عابداً حقًّا؛ العبد: هو الذي يوافق المعبود في مراده الشرعي؛ فـ«العبادة» تستلزم أن يقوم الإنسان بكل ما أُمر به، وأن يترك كل ما نُهي عنه؛ ولا يمكن أن يكون قيامه هذا بغير معونة الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ أي لا نستعين إلا إياك على العبادة، وغيرها؛ و«الاستعانة» طلب العون؛ والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجمع بين العبادة، والاستعانة، أو التوكل في مواطن عدة في القرآن الكريم؛ لأنه لا قيام بالعبادة على الوجه الأكمل إلا بمعونة الله، والتفويض إليه، والتوكل عليه.

قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ فيه قراءتان: بالسين: «السراط»، وبالصاد الخالصة: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾؛ والمراد بـ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ الطريق؛ والمراد بـ«الهداية» هداية الإرشاد، وهداية التوفيق؛ فأنت بقولك: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ تسأل الله تعالى علمًا نافعًا، وعملاً صالحًا؛ و﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي الذي لا اعوجاج فيه.

قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ عطف بيان لقوله تعالى: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾؛ والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩﴾. [النساء: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾: هم اليهود، وكل من علم بالحق ولم يعمل به.

قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾: هم النصارى قبل بعثة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وكل من عمل بغير الحق جاهلاً به.

وفي قولـه تعالـى: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ قراءتان سـبعيتان: إحداهما ضم الهاء؛ والثانية كسرها.

واعلـم أن القراءة التي ليسـت في المصحف الـذي بين أيدي الناس لا تنبغي القراءة بها عند العامة لوجوه ثلاثة:

* الوجه الأول: أن العامة إذا رأوا هذا القرآن العظيم الذي قد ملأ قلوبهم تعظيمه، واحترامـه إذا رأوه مرة كذا، ومرة كذا تنزل منزلته عندهم؛ لأنهم عوام لا يُفرقون.

* الوجـه الثاني: أن القارىء يتهم بأنـه لا يعرف؛ لأنه قرأ عند العامـة بما لا يعرفونه؛ فيبقى هذا القارىء حديث العوام في مجالسهم.

* الوجـه الثالث: أنه إذا أحسـن العامي الظـن بهذا القارىء، وأن عنـده علماً بما قرأ، فذهـب يقلده، فربما يخطىء، ثم يقـرأ القرآن لا على قراءة المصحف، ولا على قراءة التالي الذي قرأها، وهذه مفسدة.

ولهذا قال علّي: «حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله»، وقال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إنك لا تحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»، وعمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما سمع هشام بن حكيم يقرأ آية لم يسمعها عمر على الوجه الذي قرأها هشام خاصمه إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لهشام: «اقرأ»، فلما قرأ قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «هكذا أنزلت»، ثم قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لعمر: «اقرأ»، فلما قرأ قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «هكذا أُنزلت»؛ لأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فكان الناس يقرؤون بها حتى جمعها عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على حرف واحد حين تنازع الناس في هذه الأحرف، فخاف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يشتد الخلاف، فجمعها في حرف واحد - وهو حرف قريش؛ لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي نزل عليه القرآن بُعث منهم؛ ونُسيت الأحرف الأخرى؛ فإذا كان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فعل ما فعل بصحابي، فما بالك بعامي يسمعك تقرأ غير قراءة المصحف المعروف عنده! والحمد لله: مادام العلماء متفقين على أنه لا يجب أن يقرأ

الإنسان بكل قراءة، وأنه لو اقتصر على واحدة من القراءات فلا بأس؛ فدع الفتنة، وأسبابها.

وعلى كل حال السورة هذه عظيمة؛ ولا يمكن لا لي، ولا لغيري أن يحيط بمعانيها العظيمة؛ لكن هذا قطرة من بحر؛ ومن أراد التوسع في ذلك فعليه بكتاب «مدارج السالكين» لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.[1]

❊❊❊

(١) انظر تفسير جزء عم ص ١١. وفتح ذي الجلال والإكرام ٣/ ١١١.

باب ما جاء في التأمين

عَـنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُـولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: (إِذَا أَمَّـنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَـقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلائِكَةِ: غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) متفق عليه .

الشرح

قولـه: «إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُـوا» أي قال: «آمين» ومعناها اللهم اسـتجب، فلا تقـل: «آمِينَ» لأنهـا بمعنى قاصديـن، ولهذا حرم بعض العلماء هذا القول، ولا تقل: «أمين»؛ لأنها بهذا تصير اسـم فاعل من «الأمانة» أو صفة مشبة من «الأمانة» .

وقولـه: «فَإِنَّـهُ مَـنْ وَافَـقَ تَأْمِينُـهُ تَأْمِيـنَ الْمَلائِكَـةِ» فالمـراد بالملائكة، أي المتابعون لهذا الإمام في الصلاة، سـواء في السـماء أو في الأرض، وليس يشمل كل الملائكة وليس يختص بالحفظة؛ لأن بعض ألفـاظ الحديث تأمين الملائكة في السـماء، وهذا يدل علـى أن هناك ملائكة سـخرهم الله عَزَّوَجَلَّ أن يصلوا مع المؤمنين،

فالذين شاركوا المؤمنين في صلاتهم يؤمنون على ما يؤمن عليه أهل الإيمان، ويؤمنون بعد قول الإمام ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فإذا وافقهم الإنسان؛ غفر له .

والموافقة هنا في الزمن؛ لأنه ﷺ قال: «إذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ» فيقول: آمين، والملائكة تقول: آمين.[(١)]

❋❋❋

(١) انظر شرح عمدة الأحكام ١/ ٦٥٧ .

باب ما جاء في أدعية الركوع

عن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (صليت مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم» ...) الحديث

رواه الخمسة وصححه الترمذي

الشرح

قوله: «سبحان ربي العظيم» سبحان: اسم مصدر منصوب على المفعولية المطلقة دائمًا، محذوف العامل دائمًا أيضًا، ومعنى التسبيح: التنزيه، والذي يُنزَّه الله عنه أمور:

* أحدها: مطلق النقص.

* والثاني: النقص في كمالِهِ.

* والثالث: وقد يكون مِن الثاني - مماثلة المخلوقين. فهذه ثلاثة أشياء يُنزَّه اللهُ عنها.

أمَّا الأول: فيُنزَّه عَزَّوَجَلَّ عن الجهلِ، والعجزِ، والضَّعفِ، والموتِ، والنومِ وما أشبه ذلك.

أمَّا الثاني: فيُنزَّه عن التَّعبِ فيما يفعله، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق: آية ٣٨] فالقُدْرَة والخلق لا شَكَّ أنها كمال، لكن قد يعتريها النقص بالنسبة للمخلوق، فالمخلوق قد يصنع بابًا، وقد يصنع قِدْراً، وقد يبني بناءً، ولكن مع التعب والإعياء، فيكون هذا نقصًا في الكمال. أمَّا الرَبُّ عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّه لا يلحقُه تعبٌ ولا إعياءٌ، حتى مع خَلْقِهِ لهذه المخلوقات العظيمة السماوات والأرض، وفي هذه المدَّة الوجيزة.

وأما الثالث: مماثلة المخلوقين، فإن مماثلة المخلوقين نقصٌ؛ لأن إلحاق الكامل بالناقص يجعله ناقصًا، بل مقارنة الكامل بالناقص يجعله ناقصًا كما قيل:

ألم تَرَ أنَّ السَّيفَ ينقصُ قَدْرُه
إذا قيل: إنَّ السيفَ أمضى مِن العَصَا

لأنك لو قلت: عندي سيف حديد قويٌ أمضى مِن العصا. فسيفهم الناس مِن هذا السيف أنه ضعيف؛ لأن قولك: «أمضى

مِن العصا» معناه: أنه ليس بشيء.

وقوله: «رَبِّي العظيم» . العظيم في ذاتِهِ وصفاتِهِ، فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ذاته أعظم مِن كلِّ شيء، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وطَيُّ السِّجِلِّ للكُتُب سهل جدًّا، إذا كَتَبَ الإنسانُ وثيقةً فطيُّها عنده سهل، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧] .

وما السماوات السبع والأرضون السبع في كَفِّ الرحمن إلا كخَرْدَلة في كَفِّ أحدنا.

وأمَّا عِظَمُ صفاته فلا تسأل عنها، ما من صفة من صفاته إلا وهي عُظمى كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل: ٦٠] .

إذاً؛ أنت تُنزِّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتصفه بعد تنزيهه بأمرين

كماليين كاملين وهما: الربوبية والعظمة، فيجتمع مِن هذا الذِّكرِ: التَّنزيه والتَّعظيم.

والتَّنزيه والتَّعظيم باللسان تعظيم قوليٌّ، وبالرُّكوع تعظيم فعليٌّ، فيكون الراكع جامعًا بين التعظيمين: القوليّ والفعليّ.

ولهذا قال النبيُّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ألا وإنِّي نُهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجداً، أمَّا الركوع فعظِّموا فيه الرَّب».

ولما كان القرآنُ أشرفَ الذِّكْرِ؛ لم يُناسبْ أن يقرأه الإِنسانُ وهو في هذا الانحناء، بل يُقرأ في حال القيام.(١)

إذاً ينبغي للإنسان إذا كان يصلي وقال: سبحان ربي العظيم. أن يستحضر أمر الله في قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: ٧٤] وأمر الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في قوله: «اجعلوها في ركوعكم» حتى يجمع بين الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.(٢)

(١) انظر الشرح الممتع ٣/ ٩١ . والتعليق على المنتقى ١/ ١٦٢ . وتفسير سورة البقرة ١/ ١١٣ .
(٢) انظر تفسير سورة الواقعة ص ٣٤٦ .

وينبغي له أيضًا أن يستحضر أنه واقف بين يدي الله، فينحني تعظيمًا له عَزَّوَجَلَّ، ولها قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (أما الركوع فعظموا فيه الرب عَزَّوَجَلَّ)، أي: قولوا سبحان ربي العظيم، لأن الركوع تعظيم بالفعل، وقول: (سبحان ربي العظيم) تعظيم بالقول، فيجتمع التعظيمان بالإضافة إلى التعظيم الأصلي وهو تعظيم القلب لله، لأنك لا تنحني هكذا إلا لله تعظيمًا له، فيجتمع في الركوع ثلاثة تعظيمات:

١. تعظيم القلب.
٢. تعظيم الجوارح.
٣. تعظيم اللسان.

فالقلب: تستشعر أنك ركعت لله، واللسان: تقول سبحان ربي العظيم، والجوارح: تحني ظهرك. [(١)]

❊❊❊

(١) انظر شرح رياض الصالحين ١/ ٣٩٢.

﴿ فصل ﴾

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يقول في ركوعه وسجوده: «سبوح قدوس، رب الملائكة والروح».

رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي.

الشرح

قوله: «كان يقول: سبوح قدوس» سبوح: خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: أنت سبوح، وقدوس: خبر ثانٍ أيضًا لذلك المبتدأ المحذوف، يعني: وأنت أيضًا قدوس.

و«سبوح» من التسبيح والتنزيه، أي: منزه عن النقائص، وعن مشابهة المخلوقين.

و«قدوس» أي: ذو قداسة وطهر، وهو أخص من التسبيح، فالطهر أبلغ من التنزيه، والقدوس من أسماء الله، قال تعالى: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣]، والسبوح أيضًا من أسماء الله، كما يدل عليه هذا الحديث.

قولـه: «رب الملائكة والروح» خبر أيضًا، وليســت نداء كما يعتقـد البعض، لأنهـا لو كانت نداء لجـاءت منصوبة، لكنها هي مرفوعة.(١)

❊❊❊

(١) انظر التعليق على المنتقى ١/ ١٦٨ .

فصل

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي». متفق عليه.

الشرح

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان يقول في ركوعه وسجوده» أي: إذا ركع وإذا سجد بالإضافة إلى التسبيح وهو «سبحان ربي العظيم» في الركوع، «وسبحان ربي الأعلى» في السجود.

«سبحانك» أي: تنزيهًا لك عن كل ما لا يليق بعظمتك وسلطانك - جل وعلا - فينزه عن النقائص والعيوب، النقائص في الكمالات والعيوب في العاهات، فمثلاً السمع كمال ينزه عن نقصه ليس في سمعه نقص، البصر كمال ليس في بصره نقص، القوة كمال ليس في قوته نقص، فالقدرة لله عَزَّوَجَلَّ بلا عجز، والقوة بلا ضعف، والسمع بلا صمم، والبصر بلا عمى وهكذا، فهو منزه

عن النقائـص في الكمالات، ومنزه عن العيوب في العاهات، فكل عيب فهو منزه عنه كالعجز والصمم وكل ما يتضمن نقصًا .

وقالوا إن التسبيح مأخوذ من قولهم: «سبح الرجل في الماء إذا نزل فيه وأبعد».

وقولـه: «اللهم» يعني: يا الله، هـذا أصلها، حذفت الياء تبركًا بالبـداءة باسـم الله عَزَّوَجَلَّ، وعـوض عنهـا الميـم حتـى لا تنقص الجملـة، وصارت الميم في الآخر، لأنها تدل على الضم والجمع فكأن من يقول: «اللهم» قد جمع قلبه ولسانه على دعاء الله عَزَّوَجَلَّ.

«وبحمـدك» الـواو حرف عطـف، والباء للمصاحبـة؛ يعني: وذلـك تسـبيحي مقـرون بالحمـد، والحمـد يكون علـى كمال الصفات، فإذا جمعنا بين التنزيه وكمال الصفات كمل الموصوف؛ لأنه لا يكمل الشـيء إلا بانتفاء وإثبـات؛ بانتفاء العيوب وإثبات الكمـالات، فلهذا إذا جمع بين التسـبيح والحمد؛ فقد جمع بين نفي كل ما لا يليق بالله عن الله وإثبات صفات الكمال لله عَزَّوَجَلَّ.

«اللهم اغفر لي» أي: يا الله اغفر لي والمغفرة: هي ستر الذنب والتجاوز عنه، لأنها مأخوذة من المغفر: وهو ما يوضع على الرأس مما يسمى بالبيضة والخوذة ليتقي به سهام العدو، فهو جامع بين الستر والوقاية، ولهذا لا تحل المغفرة إلا بذلك فلو أن الإنسان فضح بذنبه في الدنيا ولم يعاقب عليه في الآخرة، فإنه لا يقال: غفر له؛ لأنه عوقب، وإذا ستر عليه في الدنيا ولكن عوقب عليه في الآخرة، فإنه لا يقال: إنه غفر له، لأنه عوقب عليه، فالمغفرة تتضمن هذين الشيئين وهما الستر والوقاية.

هذا الحديث له سبب وهو: أن الله أنزل على نبيه ﷺ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١...﴾ الآيات. قالت عائشة: «لم يكن يدع الدعاء بهذا حين أنزلت عليه هذه السورة»، وهي - أعني: السورة - إيذان بقرب أجل النبي ﷺ، كما فهم ذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ووافقه على هذا عمر.[1]

(١) انظر فتح ذي الجلال والإكرام ٣/ ٢٢٢ . والشرح المختصر على بلوغ المرام ١/ ٥٢٨ . والتعليق على المنتقى ١/ ١٦٩ . وشرح رياض الصالحين ٥/ ٥٠٦ . والتعليق على صحيح البخاري ٣/ ٤٤٢ .

فصل

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين، ..... إلى أن قال: «وإذا ركع قال: «اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي ....» الحديث رواه أحمد ومسلم والترمذي وصححه .

الشرح

قوله: «وإذا ركع قال: «اللهم لك ركعت» قدم المعمول «لك» على العامل «ركعت» لفائدة الاقتصار، أي: لك وحدك أركع لا لغيرك .

قوله: «آمنت» هذا يتعلق بإقرار القلب، واعترافه .

قوله: «ولك أسلمت» هذا يتعلق بالانقياد والعمل والجوارح.

قوله: «خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي»

هذا دائمًا يقع التفصيل في مقام الدعاء، إذ لو قال: «لك خشعت» لكان كافيًا؛ لكنه ذكر ذلك على سبيل التفصيل، لاستحضار أن جميع أجزاء الإنسان وجوارحه خاشعة لله تعالى، كما أن مقام الدعاء ينبغي فيه البسط حتى يكثر تضرع الإنسان إلى الله، ولأنه من المعلوم يناجي الله عَزَّوَجَلَّ، ومناجات المحبوب تستحب فيها الإطالة، ولله المثل الأعلى، فإنك تجد الإنسان إذا كلم صديقًا له يحبه، يود أن يجعل من الحرف حرفين، والكلمة عشر كلمات، لأجل أن تطول المحادثة والمناجاة بينهما، فكذلك بين الداعي والله عَزَّوَجَلَّ، فلهذا جاء البسط في مقام الدعاء .(١)

❊❊❊

(١) انظر التعليق على المنتقى ١/ ٢٩ .

﴿ باب ما جاء في أدعية الرفع من الركوع ﴾

عن أبـي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قـام إلى الصلاة يكبر حين يقوم، ثم يكبر حين يركع، ثم يقول: سمع الله لمن حمده حين يرفع صلبه من الركوع، ثم يقول وهو قائم: ربنا ولك الحمد ...» الحديث. متفق عليه.

الشرح

قوله: «سـمع الله لمن حمده» سـمع: مِن المعروف أنَّها تتعدَّى بنفسها كما قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١] وهنا تعدَّت باللام، ولا يمكن أن نقول: إنَّ تعديتها باللام مِن أجل ضَعْفِ العامـل، لأن العامل هنا فِعْلٌ، وهو الأصل في العمل، ولكن نقول: تعدَّت باللام؛ لأنها ضُمِّنت معنى فعل يُعدَّى باللام.

وأقربُ فِعْلٍ يتناسب مع هذا الفعل «استجاب» قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ الآيـة [آل عمـران: ١٩٥] وعلى هذا؛ فمعنى «سَـمِعَ» أي: استجابَ، وهذا هو المراد بدلالة اللفظ ودلالة المقام عليه.

* **أما دلالة اللفظ**: فهو تعدِّي الفعل باللام.

* **وأما دلالة المقام**: فلأن مجرَّدَ السَّمْعِ لا يستفيدُ منه الحامدُ، إنَّما يستفيد بالاستجابة، فإن الله يسمعُ مَنْ يحمدُه، ومَنْ لم يحمدْه.

وقوله: «سمع الله لمن حمده» سَبَقَ أنَّ «الحَمْد» هو: وَصْفُ المحمود بالكمال مع المحبَّة والتَّعظيم.

ولكن قد يقول قائل: كيف تقولون بأن «سَمِعَ» بمعنى: استجاب، والحمد ليس فيه دعاء؟

الجواب على ذلك: أن نقول: إنَّ مَنْ حَمِدَ اللهَ، فإنه قد دعا رَبَّه بلسان الحال؛ لأن الذي يحمَدُ اللهَ يرجو الثَّوابَ، فإذا كان يرجو الثَّوابَ فإن الثناء على الله بالحَمْد والذِّكر والتكبير متضمِّنٌ للدُّعاء؛ لأنه لم يَحمَدِ الله إلا رجاءَ الثَّوابِ، فيكون قولنا: «استجاب»؛ مناسبًا تمامًا لذلك.

قوله: «رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ» الحمدُ: وصف المحمود بالكمال مع المحبَّة والتَّعظيم، فيُقال: حَمِدَ فلانٌ رَبَّه، أي: وَصَفَه بصفات

الكمال مع محبَّته وتعظيمه، وأنه ذو احترام في قلبه. قال ابن القيم: وبهذا يُعرف الفَرْقُ بين الحَمْدِ والمدح؛ فإنَّ المدحَ: وَصْفُ الممدوح بالكمال، أو بالصِّفات الحميدة، لكن لا يلزم منه أن يكون محبوبًا معظَّمًا، فقد يمدحه مِن أجل أن ينالَ غَرَضًا له، وقد يمدحُه مِن أجل أن يتَّقي شَرَّه، لكن؛ الحمدُ لا يكون إلا مع محبَّةٍ وتعظيمٍ. وبهذا نعرف قوَّةَ سِرِّ اللغةِ العربيةِ، حيث إن الحروف واحدة هنا «حمد» و«مدح» لكن لما اختلف ترتيب الحروف اختلف المعنى.

وأمَّا من عَرَّفَ «الحَمْدَ» بأنه: الثناء بالجميل الاختياري، فهذا قاصر:

أولاً: لأن الثناء أخصُّ من المدح؛ لأن الثناء هو مدحٌ مكرَّر كما جاء في الحديث القدسي الصحيح: «أن الإنسان إذا قال: الحمد لله رَبِّ العالمين، قال الله: حَمِدَني عبدي، فإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله: أثنى عَلَيَّ عبدي» ففرَّقَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين الحَمْدِ والثناء.

ثانيًا: أنه بالجميل الاختياري يخرجُ الحَمْدُ على كمال الصِّفات اللازمة؛ التي لا تتعدَّى كالعظمة والكبرياء، وما أشبه

ذلك، والله تعالى محمـود على صفات الكمال اللازمة، وصفات الكمال المتعدية، فهو محمودٌ على كمالِهِ ومحمودٌ على إحسـانِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وفي قوله: «ربنا ولك الحمد» سنن متنوعة :

الأولى: «ربنا ولك الحمد» كما في هذا الحديث.

والثانية: «ربنا لك الحمد» بحذف الواو.

والثالثة: «اللهم ربنا ولك الحمد» بالجمع بين اللهم والواو.

والرابعة: «اللهم ربنا لك الحمد».

كل هـذه ثابتة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهـل الأولى المحافظة علـى واحد من هذه الصيغ والاسـتمرار عليها، أو الأولى أن يُقال هذا مرة وهذا مـرة، أو الأولى أن يؤخذ بالأكثر منها وهو: «اللهم ربنا ولك الحمد» لأن فيه زيادة ؟

الصواب: الثاني بمعنى: أنك تأخذ بهذا تارة وبهذا تارة.(١)

(١) انظر الشرح الممتع ٣/ ٩٦ . وفتح ذي الجلال ٣/ ٢٣١ . والتعليق على المنتقى ١/ ١٩٠ . وشرح عمدة الأحكام ١/ ٧٠٢، ٧٢٢ . والتعليق على صحيح البخاري ٣/ ٤٤٥ .

فصل

وعَـنْ أَبِي سَـعِيد الخُـدْرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «كَانَ رَسُـولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِن الرُّكُوعِ قال: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّـمَوَاتِ، وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِـئْتَ مِنْ شَـيْءٍ بَعْـدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَـالَ العَبْدُ وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُـمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْـتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ. رواه مسلم.

الشرح

قوله: «اللهم» يعني يا الله، و«ربنا» يعني يا ربنا، فدعا الله عَزَّوَجَلَّ بوصف الألوهية ووصف الربوبيـة، فوصف الألوهية لأنها عبادة والربوبية لأنها سؤال .

وقولـه: «ملءَ السـموات والأرض» . قال بعـضُ أهل العِلم: معنـاه أنه لو كان الحَمْدُ أجسـامًا لملأ السَّـماءَ والأرضَ، فيكون ملأهما بالحجم.

ولكن؛ الصحيحُ خِلافُ ذلك، وأن معنى قوله: «مِلءَ السَّماءِ»: هو أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى محمودٌ على كلِّ مخلوق يخلُقُه، وعلى كلِّ فِعْلٍ يفعلُهُ. ومعلومٌ أن السماواتِ والأرضَ بما فيها كلُّها مِن خَلْقِ الله، فيكون الحمدُ حينئذٍ مالئًا للسماوات والأرض؛ لأن المخلوقات تملأ السَّماواتِ والأرضَ. وهذا أَولى؛ لأن الإِنسانَ يستحضرُ به أنَّ الله محمودٌ على كلِّ فِعْلٍ فَعَلَهُ، وعلى كُلِّ خَلْقٍ خَلَقَهُ. أمَّا أن يُقدَّر أنه أجسامٌ متراكمة فهذه أيضًا تختلف؛ لأن الأجسامَ قد تكون صغيرة وقد تكون كبيرة، ومعلومٌ الفَرْقَ بين ما مُلِئ بأجسام صغيرة، وما مُلِئ بأجسامٍ كبيرة؛ لأن ما مُلِئ بأجسام كبيرة في الغالب يكون فيه فراغات، وقَدِّرْ ذلك بصاع مِن الأقط المقروص الذي جُعل كالقُرصان، وصاعٍ من الرُّزِّ تجد الفراغات الكثيرة في الأول دون الثاني.

وقوله: «وملء ما شئت من شيء بعد» تحتمل معنيين:

* أحدهما: أن يُراد بذلك ما سِوَى السَّماواتِ والأرضِ مما لا نعلمُه.

* والثـاني: أن يُـراد بذلك ما يشـاؤه تعالـى بعد فناء السَّـماءِ والأرضِ. والأول أشمل.

تنبيـه: في بعض روايات مسـلم: «وملءَ مـا بينهما». والأكثر على حَذْفِها، وإنْ أتى بها أحيانًا فَحَسنٌ.

قوله: (أهل الثناء والمجد) أهلَ: بفتح اللام على أنها منادى، والأصل: (يا أهل الثناء والمجد) فيكون هذا توسلاً إلى الله عَزَّوَجَلَّ بكونه أهلا للثناء وأهلاً للمجد، ويجوز الرفع من حيث الإعراب والمعنـى أيضًا، ويكـون المعنى: أنت أهل الثنـاء والمجد، لكن الأول وهو مناداة الله عَزَّوَجَلَّ ووصفه بهذا أبلغ؛ لأن النداء به يتضمن الإقرار به، والنداء به، والخبر فقط يتضمن الإقرار فقط .

وقوله: (أهل الثنـاء) أي: أنك يا ربنا أهل للثناء، وهو: تكرار أوصاف الكمال، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ حين يقول المصلي: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾: يقـول الله: «أثنى على عبـدي». أي: أنك أهل ليكرر الثناء عليك .

وقوله: (المجد): العظمة والسلطان، ولا أحد أعظم من الله،

ولا أحـد أكمل من سـلطان الله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك تجدون في سـورة البروج ما يدل على العظمة من أولها إلى آخرها.

أولها: الإقسـام بالسـماء ذات البروج، ثـم في أثنائها بالعرش المجيـد، ثم في آخرها بل هو قرآن مجيد؛ لأن المقام يقتضي هذا؛ لأن الله تحـدث فيها عن قوم اعتدوا علـى أوليائه وفتنوا المؤمنين والمؤمنات، فصار ذكر العظمة والمجد فيها مناسبًا تمامًا.

قوله: (أحق ما قال العبد) أحق: بالرفع خبر لمبتدأ محذوف، والتقديـر: ذلـك أحق ما قـال العبد، أي: أن الثنـاء على الله عَزَّوَجَلَّ وتمجيـده وتعظيمـه أحق ما قال العبد؛أي: أصدق وأوفق وأشـد مطابقة للحال، لو أنـك أثنيت على رجل من أهل الدنيا قد يكون هـذا حقـًا، وقد يكون باطلًا، لكـن إذا أثنيت على الله فهو أحق ما قال العبد .

قوله: (وكلنا لك عبد) وكلنا أي: جميع الخلق والبشـر، عبيد لله عَزَّوَجَلَّ بالعبودية الشـاملة وهي عبوديـة القدر، وقدم «لك» على «عبد» لأجل إفادة الحصر.

واعلم أن العبودية تنقسم إلى قسمين: عبودية شرعية، وعبودية قدرية كونية، فقول الله عَزَّوَجَلَّ عن نوح: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ۝٣﴾ [الإسراء: ٣]. وقوله عن نبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]. كل هذه عبودية شرعية، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٣]. أي العبودية القدرية الكونية .

قوله: (اللهم لا مانع لما أعطيت) أي: لا مانع لما أعطى الله في الفعل، فإذا قدر الله لك العطاء والفضل والخير والرزق والولد والعلم وغير ذلك، فلا أحد يستطيع أن يمنعه.

وقوله: (ولا معطي لما منعت) أي: إذا قدر الله عَزَّوَجَلَّ أن يمنع هذا الشخص شيئا من فضله فلا يستطيع أحد أن يعطيه أبداً، فإن أعطاه علمنا أن الله قدره أي لم يمنعه، وهذا إشارة إلى أن الأمور كلها بيد الله عَزَّوَجَلَّ.

ونعلـم علم اليقيـن أن كل ما آتاه فهو من الله وكل ما منعنا منه فهو من الله .

واعلم أن منع الله وإعطـاءه مقرون بالحكمة، بل كل فعل من أفعال الله فإنه مقرون بالحكمة .

قوله: (ولا ينفع ذا الجد منك الجد)، الجد أي: الغنى والحظ والسـلطان والقدرة والقوة، كل إنسان عنده سـلطان وقدرة وقوة ومال، وغير ذلك مما يكون فيه مسـتغنٍ عن غيره فإنه لا يسـتغني عـن الله، ولهذا قال: «ولا ينفع ذا الجد منك الجد» يعني: أن جده وغناه وسلطانه لا ينفعه من الله .(١)

❊❊❊

(١) انظر الشرح الممتع ٣/ ٩٧ . وفتح ذي الجلال والإكرام ٣/ ٢٣٩ . والشرح المختصر على بلوغ المرام ١/ ٥٣٤ . والتعليق على المنتقى ١/ ١٩١ .

باب ما جاء في أدعية السجود

عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صليت مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم» وفي سجوده: «سبحان ربي الأعلى» ... الحديث رواه الخمسة وصححه الترمذي.

الشرح

قوله: «سبحان ربي الأعلى» «سبحان» سَبَقَ معنى التسبيح، وما الذي يُسبِّح الله عنه، أي: يُنَزِّه عنه[(١)].

وأما قوله: «رَبِّي الأعلى» دون أن يقولَ رَبِّيَ العظيم؛ لأن ذِكْرَ علوِ الله هنا أنسب من ذكر العظمة، لأن الإنسان الآن أنزل ما يكون، لذا كان من المناسب أن يُثني على الله بالعلو، وانظر إلى الحكمة والمناسبة في هذه الأمور، كيف كان الصَّحابةُ في السفر إذا علوا شيئًا كَبَّروا، وإذا هبطوا واديًا سَبَّحوا؛ لأن الإنسان إذا علا وارتفع قد يتعاظم في نفسه ويتكبَّر ويعلو، فمناسبٌ أن يقول: «الله أكبر» لِيُذكِّرَ نفسَه بكبرياء الله عَزَّوَجَلَّ، أما إذا نزل فإن النزول

(١) انظر ص٣٣.

نقص، فكان ذِكْرُ التسبيح أَولى؛ لتنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن النقص الذي كان فيه الآن، فكان من المناسب أن يُذَكِّرَ الإنسانُ نفسَه بِمَنْ هو أعلى منها.

ونظير هذا من بعض الوجوه: أنَّ الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان إذا رأى شيئًا يعجبه من الدنيا يقول: «لبيكَ، إنَّ العيشَ عيشُ الآخرة» لأن الإنسان إذا رأى ما يعجبُه مِن الدُّنيا رُبَّما يلتفت إليه فيُعرض عن الله، فيقول: «لبيك» استجابةً لله عَزَّوَجَلَّ، ثم يوطِّنُ نفسه فيقول: «إنَّ العيشَ عيشُ الآخرة» فهذا العيش الذي يعجبك عيش زائل، والعيش حقيقة هو عيش الآخرة، ولهذا كان من السُّنَّة إذا رأى الإنسانُ ما يعجبُه في الدُّنيا أن يقول: «لبيك، إن العيشَ عيشُ الآخرة».

■ وما المراد بالعلو في قول: «سبحانَ ربِّيَ الأعلى» أعلوُّ المكان، أم علوُّ الصفة؟

الجواب: يشمَلُ الأمرين جميعًا، وهذا متفق عليه في فِطَرِ الناس؛ إلا مَن اجتالَتْهُ الشياطين عن فطرته، فإن علوَّ الله عَزَّوَجَلَّ علو

ذات، أمرٌ مفطور عليه الخلق، فلو أنك قلت للعامي: ماذا تريد بقولك «سبحان رَبِّيَ الأعلى»؟ لقال: أريد أنه فوق كلِّ شيءٍ، ولا يدري عن علوِّ الصِّفة، ومع ذلك فقد أنكر علوه في ذاته مَنْ أنكر ممن يستقبلون قبلتنا، ولا شَكَّ أنهم خالفوا الكتابَ والسُّنَّةَ وإجماعَ السَّلفِ والعقلَ والفطرةَ، ولو رجعوا إلى فِطَرهم لعلموا أن الإيمان بعلوِّ الله تعالى بذاته أمرٌ لا بُدَّ منه، ولا بُدَّ من الإقرار به، فهم عندما يصيبهم شيءٌ تنصرفُ قلوبُهم إلى السَّماء إلى العلوِّ.

وهم يقفون بعَرَفَة يدعون الله، فهل يرفعون أيديهم، أم ينزلوها إلى الأرض؟

ومن العجيب أنهم يرفعون أيديهم، ويدَّعون أنَّ الله في الأرض! نسأل الله العافية.

المهم أننا نشعر في قولنا: «سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى» أنَّ اللهَ عَلِيٌّ في ذاته، وعَلِيٌّ في صفاته، بل هو أعلى مِنْ كلِّ شيء، والله تعالى وَصَفَ نفسَه أحياناً بالأعلى، وأحياناً بالعليِّ، لأن الوصفين ثابتان له: العلو، وكونه أعلى، كما أنه يوصف بأنه الكبير وأنه

الأكبر، وبالعليم وبالأعلم. وصيغة التفضيل في هذه الأشـياء على بابها، وليست بمعنى اسم الفاعل كما يدَّعيه بعض العلماء.(١)

على كل حال نحن نقول في كل صلاة: (سبحان ربي الأعلى)، فهـل نحـن حينما نقول: (سـبحان ربـي الأعلى) نسـتحضر هذا المعنى أم نقول: (سبحان ربي الأعلى) باعتبار أنه ذكر وثناء على الله؟

والجـواب: أن الغالـب على الناس عمومـًا وخصوصـًا إنهم إذا قالوا: (سـبحان ربـي الأعلى) لا يشـعرون ألا بالثناء على الله والتنزيه المطلق، ولا يستحضرون معنى: اللهم إني أنزهك يا ربي عـن مماثلـة المخلوقين، وعـن كل نقص في صفاتك، فلا يشـعر القائل بهذا المعنى ألا قليلا.(٢)

❊❊❊

(١) انظر الشرح الممتع ٣/ ١٢٣ . والتعليق على المنتقى ١/ ١٦٢ . وتفسير سورة البقرة ١/ ١١٣ .

(٢) انظر شرح العقيدة السفارينية ص ٤٥ .

فصل

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول في ركوعه وسجوده: «سبوح قدوس، رب الملائكة والروح» .

رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي (١).

***

(١) سبق شرحه، انظر ص ٣٦.

فصل

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي». متفق عليه.[1]

***

(١) سبق شرحه، انظر ص ٣٧.

فصل

وعـن أبـي هريـرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يقول في سجوده: «اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره» رواه مسلم.

الشرح

قولـه: «اللهـم اغفر لـي ذنبي كله دقـه وجله، وأولـه وآخره، وعلانيته وسـره» هذا من باب البسـط في الدعاء والتوسع فيه؛ لأن الدعاء عبادة فكل ما كرره الإنسـان ازداد عبادة لله عَزَّوَجَلَّ، ثم إنه في تكراره هذا يستحضر الذنوب كلها السر والعلانية وكذلك ما أخفاه وكذلك دقه وجله، هذه هي الحكمة في أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فصل بعد الإجمال، فينبغي للإنسان أن يحرص على الأدعية الواردة عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لأنها أجمع الدعاء وأنفع الدعاء.(١)

***

(١) انظر التعليق على صحيح مسلم ٣/ ٢٤٣ . وشرح رياض الصالحين ٥/ ٥٠٩ .

فصل

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «افتقدت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات ليلة فتحسست فإذا هو راكع أو ساجد يقول سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت» وفي رواية «فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

رواه مسلم.

الشرح

قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها افتقدت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات ليلة، فخرجت تتحسس عنه؛ لأنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي أحب نسائه إليه وهي تحبه أيضًا، فتخشى أن يكون أصابه شيء، فذهبت تتحسس فوجدته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجد وهو ساجد يدعو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بهذا الدعاء، قالت: «ووقعت يدي على بطون قدميه وهو ساجد»،

واستدل العلماء بذلك على أن الساجد ينبغي له أن يضم قدميه بعضهما إلى بعض ولا يفرقهما؛ لأنه لا يمكن أن تقع اليد الواحدة على قدمين متفرقتين، وكذلك هو أيضًا في صحيح ابن خزيمة أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يضم رجليه في السجود، أما الركبتان فهما على طبيعتهما لا يفرقهما ولا يضمهما على طبيعتهما.

وكان من دعائه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك» والمعنى: أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ بالأعمال الصالحة عن الأعمال السيئة؛ لأن الأعمال السيئة توجب الغضب والسخط والأعمال الصالحة توجب الرضا، والشيء إنما يداوي بضده، فالسخط ضده الرضا، فيستعيذ بالرضا من السخط .

«وبمعافاتك من عقوبتك» يعني أستعيذ بمعافاتك من الذنوب وآثارها وعقوباتها من عقوبتك على الذنوب، وهذا يتضمن سؤال المغفرة .

«وأعوذ بك منك» وهذا أشمل وأعم، أنه يتعوذ بالله من الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك لأنه لا منجى ولا ملجأ من الله إلا إليه، لا أحد ينجيك

مـن عذاب الله إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فتسـتعيذ بـالله من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، أي: تستعيذ به من عقوبته وغير ذلك مما يقدره.[1]

❊❊❊

(١) انظر شرح رياض الصالحين ٥/ ٥١٠ .

باب ما جاء في الدعاء بين السجدتين

عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يقول بين السجدتين: اللهم اغفر لي، وارحمني، وأهدني، وعافني، وارزقني). رواه الأربعة إلا النسائي، واللفظ لأبي داود، وصححه الحاكم.

الشرح

قوله: «اللهم اغفرْ لي»: أي: أنك تسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يغفرَ لك الذُّنوبَ كلَّها الصغائر والكبائر.

والمغفرة هي: ستر الذَّنبِ والعفو عنه، مأخوذة من المِغْفر الذي يكون على رأس الإنسان عند الحَرْبِ يتَّقي به السهام.

وأما «ارحمني»: فهو طلبُ رحمة الله عَزَّوَجَلَّ التي بها حصول المطلوب، وبالمغفرة زوال المرهوب، هذا إذا جُمع بينهما.

أما إذا فُرِّقت المغفرة عن الرحمة؛ فإنَّ كُلَّ واحدة منهما تشمَلُ الأخرى، ولهذا نظائر في اللغة العربية: فالفقير والمسكين إذا ذُكِرَا جميعًا صار لكلِّ واحد منهما معنى، وإذا أُفرد أحدُهما عن الآخر

صار معناهما واحداً، أي: إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

وأما قوله: «ارزقني» فهو طلب الرزق، وهو ما يقوم به البدن، وما يقوم به الدِّين.

يعني؛ أنَّ رِزْقَ الله عَزَّوَجَلَّ ما يقوم به البدن من طعام وشراب ولباس وسَكَنٍ، وما يقوم به الدِّين من عِلْمٍ وإيمانٍ وعَمَلٍ صالح. والإنسان ينبغي له أن يعوِّد نفسَه على استحضار هذه المعاني العظيمة حتى يخرج منتفعًا.

فإذا قال: «ارزقني» يعني: ارزقني ما به قِوام البدن، وما به قِوام الدِّين.

قوله: «وعافني» أي: أعطني العافية مِن كلِّ مرضٍ ديني أو بدني، ثم إن كان متَّصفًا بهذا المرض؛ فهو دعاء برَفْعِهِ، وإن كان غير متَّصف فهو دعاء بدَفْعِهِ، بحيث لا يتعرَّض له في المستقبل.

فينبغي للإنسان إذا سأل العافية في هذا المكان أو غيره أن يستحضر أن يسأل الله العافية: عافية البدن، وعافية الدِّين.

قوله: «واجبرني» الجَبْرُ يكون من النَّقْصِ، وكلُّ إنسان ناقص مفرِّط مُسِرفٌ على نفسه بتجاوز الحدِّ أو القصور عنه، ويحتاج إلى جَبْرٍ حتى يعود سليمًا بعد كَسْرِهِ؛ لأن الإنسان يحتاج إلى جَبْرٍ يَجبرُ له النَّقْصَ الذي يكون فيه.

فهذه المعاني التي تُذكر في الأدعية ينبغي للإنسان أن يستحضرها. فإن قال قائل: أليس يغني عن ذلك كله أن يقول: «اللَّهُمَّ ارحمني»؟ لأنَّ الرحمة عند الإطلاق: بها حصولُ المحبوب وزوال المكروه؟

فالجواب: بلى، لكن مقام الدُّعاء ينبغي فيه البسط، لكن على حسب ما جاءت به السُّنَّة، وليس البسط بالأدعية المسجوعة التي ليس لها معنى، أو يكون لها معنى غير صحيح.

وإنما كان البسط مشروعاً في الدُّعاء لأسباب:

١. لأنّ الدُّعاء عبادة، وكلما ازددتَ من العبادة ازددتَ خيراً.

٢. أنَّ الدُّعاء مناجاة لله عَزَّوَجَلَّ، وأحبُّ شيء للمؤمن هو الله عَزَّوَجَلَّ، ولا شكَّ أنَّ كثرةَ المناجاة مع الحبيب مما تزيد الحُبَّ.

٣. أن يستحضر الإنسانُ ذنوبَه على وجه التفصيل، لأن للذُّنوب أنواعًا، فإذا زِيدَ في الدُّعاء استحضرت، ولهذا كان من دُعاء الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ اغْفِر لي ذنبي كُلَّهُ، دِقَّهُ وجِلَّهُ، وأوَّلَهُ وآخرهُ، وعلانيتَهُ وسِرَّهُ» [(١)].

❃❃❃

(١) انظر الشرح الممتع ٣/ ١٣٠ . وفتح ذي الجلال ٣/ ٢٧٠ . والشرح المختصر على بلوغ المرام ١/ ٥٤٦ . والتعليق على المنتقى ١/ ٢٤٣ ، وشرح رياض الصالحين ٦/ ١٩.

باب ما جاء في أدعية التشهد

عن عبد الله ابن مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: التفت إلينا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «إذا صلى أحدكم فليقل: التحيات لله، والصلوات، والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، اشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه، فيدعو». متفق عليه، واللفظ للبخاري. وللنسائي: «كنا نقول قبل أن يفرض علينا التشهد».

الشرح

قوله: «التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ» التحيات: جمع تحيَّة، والتحيَّة هي: التَّعظيم، فكلُّ لَفْظٍ يدلُّ على التَّعظيم فهو تحيَّة، و«الـ» مفيدة للعموم، وجُمعت لاختلاف أنواعها، أما أفرادها فلا حدَّ لها، يعني: كُلَّ نوع من أنواع التَّحيَّات فهو لله، واللام هنا للاستحقاق والاختصاص؛ فلا يستحقُّ التَّحيَّات على الإطلاق إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

ولا أحد يُحَيَّا على الإطلاق إلا الله، وأمَّا إذا حَيَّا إنسانٌ إنسانًا على سبيل الخصوص فلا بأس به.

لو قلت مثلاً: لك تحيَّاتي، أو لك تحيَّاتُنَا، أو مع التحيَّة، فلا بأس بذلك، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء: ٨٦] لكن التَّحيَّات على سبيل العموم والكمال لا تكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ.

■ فإذا قال قائل: هل اللَّهُ بحاجة إلى أن تحييه؟

فالجواب: كلاَّ؛ لكنه أهْلٌ للتعظيم، فأعظِّمه لحاجتي لذلك لا لحاجته لذلك، والمصلحة للعبد قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] .

قوله: «والصلوات» أي: لله، وهو شاملٌ لكلِّ ما يُطلق عليه صلاة شرعًا أو لُغةً، فالصَّلوات كلُّها لله حقًّا واستحقاقًا، لا أحد يستحقُّها؛ وليست حقًّا لأحد سوى الله عَزَّوَجَلَّ، والدُّعاءُ أيضًا حقٌّ واستحقاق لله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠] فكلُّ

الصلوات فرضُها ونفلُها لله، وكُلُّ الأدعية لله.

قوله: «والطيبات» . الطيبات لها معنيان:

* المعنى الأول: ما يتعلَّق بالله.

* المعنى الثاني: ما يتعلَّق بأفعال العباد.

فما يتعلَّق بالله فله مِن الأوصاف أطيبها، ومِن الأفعال أطيبها، ومن الأقوال أطيبها، قال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله طيب، لا يَقبلُ إلا طيبًا...» يعني: لا يقول إلا الطيب، ولا يَفعلُ إلا الطَّيب، ولا يتَّصفُ إلا بالطيب، فهو طيب في كُلِّ شيء؛ في ذاته وصفاته وأفعالِه.

وله أيضًا مِن أعمال العباد القولية والفعلية الطَّيبُ ، فإن الطَّيبَ لا يليقُ به إلا الطَّيب ولا يقدم له إلا الطيب، وقد قال الله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النور: ٢٦] فهذه سُنَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ.

فهل أنت أيُّها المصلِّي تستحضر حين تقول «الطيبات لله» هذه المعاني، أو تقولها على أنها ذِكْرٌ وثناء؟

أغلبُ النَّاسِ على الثاني، لا يستحضر عندما يقول: «الطيبات» أن الله طيِّب في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه وأقوالِه، وأنه لا يليقُ به إلا الطَّيب مِن الأقوال والأفعال الصَّادرة مِن الخَلْقِ.

وضدُّ الطَّيِّب شيئان: الخبيث، وما ليس بطيب ولا خبيث؛ لأن الله سبحانه له الأوصاف العُليا ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧] فلا يُمكنُ أن يكون في أوصافه أو أفعاله أو أقواله ما ليس بطيب ولا خبيث، بل كُلُّ أفعالِه وأقوالِه وصفاتِه كلُّها طيبة.

أما ما يصدرُ مِن الخَلْق؛ فمنه ما هو طيِّبٌ، ومنه ما هو خبيثٌ، ومنه ما ليس كذلك، لكن ما الذي يَصعد إلى الله ويُرفع إلى الله؟

الجواب: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وما ليس بطيِّبٍ فهو إلى الأرض، لا يصعدُ إلى السَّماءِ.

قوله: «السلام عليك» «السَّلام» قيل: إنَّ المراد بالسَّلامِ: اسمُ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إنَّ الله هو السَّلامُ» كما قال عَزَّوَجَلَّ في كتابه: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣] وبناءً على هذا القول يكون المعنى: أنَّ الله على الرَّسولِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

بالحِفظ والكَلاءة والعناية وغير ذلك، فكأننا نقول: اللهُ عليك، أي: رقيب حافظ مُعْتَنٍ بك، وما أشبه ذلك.

وقيل: السلام: اسم مصدر سَلَّمَ بمعنى التَّسليم كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦] فمعنى التسليم على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: أننا ندعو له بالسَّلامة مِن كُلِّ آفة.

إذا قال قائل: قد يكون هذا الدُّعاء في حياته عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واضحًا، لكن بعد مماته كيف ندعو له بالسَّلامةِ وقد مات صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؟

فالجواب: ليس الدُّعاءُ بالسَّلامة مقصوراً في حال الحياة، فهناك أهوال يوم القيامة، ولهذا كان دعاء الرُّسل إذا عَبَرَ النَّاسُ على الصِّراط: «اللَّهُمَّ، سَلِّمْ؛ سَلِّمْ»، فلا ينتهي المرءُ مِن المخاوف والآفات بمجرد موته.

إذاً؛ ندعو للرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بالسَّلامةِ من هول الموقف، ونقول أيضًا: قد يكون بمعنى أعم، أي: أنَّ السَّلامَ عليه يشمَلُ

السَّـلامَ على شرعِه وسُنَّتِهِ، وسلامتها من أن تنالها أيدي العابثين؛ كما قال العلماءُ في قوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] قالوا: إليه في حياته، وإلى سُنَّتِهِ بعد وفاته.

وقوله: «السـلام عليك» هل هو خَبَرٌ أو دعاءٌ؟ يعني: هل أنت تخبر بأن الرسولَ مُسَلَّمٌ، أو تدعو بأن الله يُسلِّمُه؟

الجـواب: هـو دُعاءٌ تدعو بـأنَّ الله يُسـلِّمُه، فهو خَبَـرٌ بمعنى الدُّعاء قوة رجاء الإجابة أمرٌ واقع.

ثم هل هذا خطاب للرَّسـول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كخطـابِ النَّاسِ بعضهم بعضـًا؟

الجواب: لا، لو كان كذلك لبطلت الصَّلاة به؛ لأن هذه الصلاة لا يصحُّ فيها شـيء من كلام الآدميين. ولأنَّه لو كان كذلك لجَهَرَ بـه الصَّحابةُ حتى يَسـمعَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ولردَّ عليهم السَّـلام كما كان كذلك عند ملاقاتِهم إيَّاه، ولكن كما قال شـيخ الإسلام في كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم»: لقوَّة استحضارك للرسول عليه الصَّلاةُ والسَّلام حين السَّلامِ عليه، كأنه أمامك تخاطبه.

ولهذا كان الصَّحابةُ يقولون: السلام عليك، وهو لا يسمعهم، ويقولون: السلام عليك، وهم في بلد وهو في بلد آخر، ونحن نقول: السلام عليك، ونحن في بلد غير بلده وفي عصر غير عصره.

وأمّا ما وَرَدَ في «صحيح البخاري» عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم كانوا يقولون بعد وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «السَّلامُ على النَّبيِّ ورحمة الله وبركاته» فهذا مِن اجتهاداتِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التي خالَفه فيها مَنْ هو أعلمُ منه؛ عُمرُ بن الخطّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه خَطَبَ النَّاسَ على مِنبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال في التشهُّدِ: «السَّلامُ عليك أيُّها النبيُّ ورحمة الله» كما رواه مالك في «الموطأ» بسَنَدٍ من أصحِّ الأسانيد، وقاله عُمرُ بمحضر الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وأقرُّوه على ذلك.

ثم إن الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علَّمه أمَّته، حتى إنه كان يُعلِّم ابنَ مسعود، وكَفُّه بين كفَّيه من أجل أن يستحضر هذا اللَّفظَ، وكان يُعلِّمُهم إيّاه كما يُعلِّمُهم السُّورة من القرآن، وهو يعلم أنه سيموت؛ لأن الله قال له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ [الزمر: ٣٠]

ولم يقلْ: بعد موتي قولوا: السَّـلامُ على النَّبيِّ، بل عَلَّمَهم التشهُّدَ كمـا يُعلِّمُهم السُّـورةَ من القـرآن بلفظها. ولذلـك لا يُعَوَّلُ على اجتهاد ابن مسعود، بل يُقال: «السَّلامُ عليك أيُّها النبيُّ».

قولـه: «أيُّهـا النبيُّ» مُنـادى حُذفت منه ياء النـداء، والأصل: يا أيهـا النبيُّ، وحُذفت يـاء النداء لكثرة الاسـتعمال والتخفيف، والبداءة بالكناية لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويُقال: النَّبيءُ بالهمزة، ويقال: النَّبيُّ بتشديد الياء بدون همزة.

أمّـا إذا قيل: النبيءُ بالهمـزة، فهو فعيل مِن النبأ بمعنى الخَبَر، لكنه فعيل، بمعنى فاعل ومفعول؛ لأنه منبِئ ومنبأ.

وأما إذا قيل: النَّبيُّ بتشديد الياء بلا همز، فإما أن تكون أصلها مهموزاً وحُذفت الهمزة تخفيفًا، وإمَّا أن تكون من «النَّبْوَة» وهي الارتفاع وسُمِّيَ بذلك لارتفاع رُتبته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فـإن قيـل: ألا يمكـن أن نقول بأنهـا النَّبي بالياء مـن الأمرين جميعـًا من النَّبْوَة وهو الارتفاع، ومن النبأ وهو الخبر؟

فالجواب: يمكن، لأن القاعدة: أن اللفظ إذا احتمل معنيين لا يتنافيان ولا مُرَجِّح لأحدهما على الآخر؛ حُمل عليهما جميعًا.
ولا شَكَّ أن الرسولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقامُه أرفع المقامات وأنه منبأ ومنبئ.

قوله: «ورحمة الله» «رحمة» معطوفة على «السَّلام عليك» يعني: ورحمة الله عليك، فيكون عطف جملة على جملة والخبر محذوف، ويجوز أن يكون مِن باب عطف المفرد على المفرد، فلا يحتاج إلى تقدير الخبر.

والرحمة إذا قُرنت بالمغفرة أو بالسَّلامِ صار لها معنى، وإن أُفردت صار لها معنى آخر، فإذا قُرنت بالمغفرة، أو بالسلام صار المراد بها: ما يحصُل به المطلوب، والمغفرة والسلام: ما يزول به المرهوب، وإن أُفردت شملت الأمرين جميعًا، فأنت بعد أن دعوت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسَّلام دعوت له بالرَّحمة؛ ليزول عنه المرهوب ويحصُل له المطلوبُ.

فإن قال قائل: لماذا بدأ بالسَّلام قبل الرحمة؟

فالجواب: أنَّ التَّخلية قبل التحلية.

فالتخلية: السَّلامة من النقائص، والتَّحلية: ذِكْرُ الأوصاف الكاملة، فنبدأ بطلب السلامة أولاً، ثم بطلب الرحمة.

قوله: «وبركاته» جمع بَرَكَة، وهي الخير الكثير الثَّابت، لأن أصلها من «الْبِرْكة» بكسر الباء «والْبِرْكة» مجتمع الماء الكثير الثابت.

والْبَرَكَةُ هي: النَّمَاءُ والزِّيادة في كلِّ شيء من الخير، فما هي البركات التي تدعو بها للرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعد موته؟ ففي حياته ممكن أن يُبارك له في طعامه، في كسوته، في أهله، في عمله.

فأما البَرَكة بعد موته: فبكثرة أتباعه وما يتبع فيه، فإذا قَدَّرنا أن شخصًا أتباعه مليون رَجُل، وصار أتباعه مليونين فهذه بَرَكة.

وإذا قَدَّرْنا أن الأتباع يتطوَّعون بعشر ركعات، وبعضهم بعشرين ركعة صار في الثاني زيادة.

إذاً؛ نحن ندعو للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبَرَكة وهذا يستلزم

كَثْرَة أتباعه، وكَثْـرَة عمل أتباعه؛ لأنّ كلَّ عمل صالح يفعلهُ أتباع الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فله مثل أجورهم إلى يوم القيامة.

وأقول استطراداً: إن هذا أحد الأوجه التي يُـرَدُّ بها على من يهدون ثواب القُـرَب إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن بعض المحبِّين للرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يهدون إليه القُرَب؛ كالختمة والفاتحة على روح محمَّد كما يقولون وما أشبه ذلك، فنقول: هذا من البدع ومن الضلال. أسألك أيُّها المُهْدي للرسول عبادة، هل أنت أشدُّ حُبًّا للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من أبي بكر وعُمر وعُثمان وعليّ؟

إن قال: نعم، قلنا: كذبت، ثم كذبت، ثم كذبت، ثم كذبت.

وإن قال: لا، قلنا: لماذا لم يُهْدِ أبو بكر والخلفاء بعده للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ختمة ولا فاتحة ولا غيرها؟ فهذا بدعة. ثم إن عملك الآن وإن لم تُهْدِ ثوابه سيكون للرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثله. فإذا أهديت الثَّوابَ، فمعناه أنك حرمت نفسك من الثواب فقط، وإلاَّ فللرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل عملك أهديت أم لم تُهْدِ.

قوله: «السلام علينا» . نقول في السلام كما قلنا في الأول .

وأما علينا فـ«نا» لا شَكَّ أنه لا يُراد بها الشخص نفسه فقط، وإنما يُراد بها الشَّخص ومَن معه، فمن الذي معه؟

قيل: المصلُّون. وقيل: الملائكة. وقيل: المراد جميع الأُمَّة المحمَّدية. وهذا القول الأخير أصحُّ، فكما دعونا لنبينا محمَّد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالسَّلامِ؛ ندعو أيضًا لأنفسنا بالسَّلام؛ لأننا أتباعه.

ولا أدري هل نحن نستحضر هذا إذا قلنا في الصلاة: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؟ أننا نسلم على أنفسنا، السلام علينا وعلى كل عبد صالح في السماء والأرض يعني نسلم على الأنبياء نسلم على الصحابة نسلم على التابعين لهم بإحسان، نسلم على أصحاب الأنبياء كالحواريين أصحاب عيسى والذين اختارهم موسى عليه الصلاة والسلام سبعين رجلا وغير ذلك هل نحن نستحضر أننا نسلم على جبريل وعلى ميكائيل وعلى إسرافيل وعلى مالك خازن النار وعلى خازن الجنة وعلى جميع الملائكة لا أدري هل نحن نستحضر هذا أم لا؟ إن كنا لا نستحضر فيجب

أن نستحضر ذلك لأن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إنكم إذا قلتم ذلك سلمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض.

قوله: «وعلى عباد الله الصالحين» . هذا تعميم بعد تخصيص؛ لأن عباد الله الصالحين هم كُلُّ عبدٍ صالح في السماء والأرض؛ حيّ أو ميِّت من الآدميين والملائكة والجِنِّ.

وعباد الله هم الذين تعبَّدوا لله: أي تذلَّلوا له بالطاعة امتثالاً للأمر واجتنابًا للنهي، وأفضل وَصْفٍ يتَّصف به الإنسان هو أن يكون عبداً لله، ولهذا ذَكَرَ اللهُ وَصْفَ رسوله بالعبودية في أعلى مقاماته.

في الإسراء ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] والمعراج ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ١٠﴾ [النجم: ١٠]، والإسراء والمعراج مِن أفضل ما يكون من المقامات للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ووَصَفَهُ بذلك في مقام الدِّفاع عنه ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] .

ووَصَفَهُ بذلك في مقام التنزيل عليه ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ

عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ [الفرقان: ١] ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ [الكهف: ١].

فالحاصل: أن أشرف وصف للإنسان أن يكون عبداً لله - أسأل الله أن يحقِّق ذلك لعباده المؤمنين - لا عبداً لهواه، إذا سَمِعَ أَمْرَ رَبِّه قال: سمعنا وأطعنا، وإذا سَمِعَ نهيه، قال: سمعنا وَتَجَنَّبْنَا، وإذا سَمِعَ خبراً قال: سمعنا وصدَّقنا وقبلنا.

وعباد الله الصالحون هم الذين صَلُحَتْ سرائرُهم وظواهرُهم.

فصلاح السرائر: بإخلاص العبادة لله، والظَّواهر: بمتابعة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

هؤلاء هم الصَّالحون، وضِدُّ ذلك عباد الله الفاسدون، إما بالسَّرائر، وإما بالظَّواهر، فالمشركُ فاسدُ السَّريرة، والمبتدعُ فاسدُ الظَّاهر؛ لأنَّ بعض المبتدعة يريد الخيرَ، لكنه فاسدُ الظَّاهر لم يمشِ على الطَّريق الذي رَسَمَهُ رسولُ الله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

والمشركُ فاسدُ الباطن، ولو عَمِلَ عملاً ظاهرُه الصِّحة والصَّلاح مثل المرائي.

مسألة: هل هناك عباد لله فاسدون؟

نعم؛ كُلُّ مَنْ في السماوات والأرض فهم عباد لله بالعبودية الكونية كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم: ٩٣]، فالكُفَّار عبيد لله، بالعبودية الكونية القدرية؛ لا بالعبودية الشرعية.

قوله: «أشهد أن لا إله إلا الله» . الشهادة هي الخبر القاطع، فهي أبلغ مِن مجرد الخبر. لأن الخبر قد يكون عن سماع، والشهادة تكون عن قَطْعٍ، كأنما يشاهد الإنسانُ بعينيه ما شَهِدَ به.

تنبيه: يقول بعض الناس: «أشهد أنَّ لا إله إلا الله» بتشديد «أنّ»، وهذا خطأ من حيث اللغةُ العربيةُ، لأن «أنَّ» لا تكون بمثل هذا التركيب، والتي تكون بمثل هذا التركيب «أنْ» المخفَّفة مِن الثقيلة وجملة «لا إله إلا الله» في مَحلِّ رَفْعِ خبرها، واسمُها ضمير الشأن محذوف وجوبًا.

إذاً؛ النُّطقُ الصحيحُ: أشهد أنْ لا إله إلا الله، بتخفيف «أنْ».

و«لا إله إلا الله» كلمةُ التوحيد التي بعثَ اللهُ بها جميعَ الرُّسلِ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وبها يكون تحقيق توحيد الألوهية، وإن شئت فقل: تحقيق توحيد العِبادة، وهما بمعنى واحد، لكن يُسمَّى توحيدُ الألوهية باعتبار إضافته إلى الله، وتوحيد العِبادة باعتبار إضافته إلى العبد.

ومعنى «لا إله إلا الله»: أي: لا معبود حقٌّ إلا الله، وفَسَّرْناها بهذا التفسير؛ لأن «إله» فِعَال بمعنى مفعول، والمألوه: هو المعبود حُبًّا وتعظيمًا وخبر «لا» محذوف والتقدير: لا إله حَقٌّ إلا الله، و«الله» بدل مِن الخبر المحذوف، ومعنى هذه الجملة العظيمة: أنه لا معبود حقٌّ سوى الله عَزَّوَجَلَّ، أما المعبود بغير حقٍّ فليس بإله حقًا وإنْ سُمِّيَ إلهًا، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، ولا بطلان أعظم مِن بطلانه، وقال الله تعالى يخاطب الذين يعبدون مِن دون الله:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]، وليست حقائق بل هي مجرَّد أسماء.

قوله: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»، سبق معنى «أشهد».

وأما «محمد» فهو محمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، بَعَثَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بمكَّة أمِّ القرى، وأحبِّ البلاد إلى الله، وهاجر إلى المدينة، وتُوفِّي فيها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: «عبده» أي: العابد له، وليس لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَرِكَةٌ في مِلْكِ الله أبداً، وهو بَشَرٌ مثلُنا تميَّز عنا بالوحي، وبما جَبَلَه الله عليه مِن العبادة والأخلاق العظيمة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤﴾ [القلم: ٤].

قال النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّما أنا بَشَرٌ مثلكم، أنسى كما تنْسَون» وأمَرَه اللهُ تعالى أن يقول: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقـال له في آية أخـرى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢﴾ [الجـن: ٢١-٢٢]، يعني: لو أرَادَ اللهُ به سـوءاً ما مَنَعَـه أحدٌ، فهو عَبْدٌ مِن العباد، وهو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أشدُّ الناسِ خشيةً لله، وأقومهم تعبّداً لله، حتى إنه كان يقوم لله عَزَّوَجَلَّ حتى تتورَّمَ قدماه، فيُقال له: لقد غَفَرَ الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر. فيقول: «أفلا أكون عَبْداً شكوراً».

وقولـه: «ورسـولُهُ» أي: مُرْسَـلُهُ، أرسـله الله عَزَّوَجَلَّ وجعلـه واسـطة بينه وبين الخَلْق في تبليغ شرعه فقط، إذْ لولا رسول الله ما عرفنا كيف نعبد الله عَزَّوَجَلَّ، فكان عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رسولاً مِن الله إلى الخَلْقِ، ونِعْمَ الرسـول، ونِعْمَ المرسِـل، ونعم المرسَل به، فالنبيُّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هـو رسـولٌ مرسـلٌ مِـنَ الله، وهو أفضل الرُّسـل، وخاتمهم، وإمامهـم، ولهذا لما جُمِعُوا له ليلـة المعراج تقدَّمهم إمامـًا مع أنه آخرهم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وعُلِمَ من هذيـن الوصفين للرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ - العبودية والرسالة - ضلالُ طائفتين ضَلَّتا فيه.

الطائفة الأولى: ظَنَّتْ أنَّ له حقًّا في الرُّبوبية، فصارت تدعو الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وصار تعظيمُه في قلوبهم أشدَّ مِن تعظيم الله - نعوذ بالله - حتى إنه إذا ذُكِرَ الرَّسولُ اقشعرت جلودهم؛ ثم تلين كأنما ذكر الله.

وإذا ذُكِرَ الله فإنما هو كالماء البارد على جلودهم لا يتحرَّكون، فهؤلاء أشركوا بالله حيث ساووا الرَّسولَ بالله بل جعلوه أعظم مِن الله عَزَّوَجَلَّ.

الطائفة الثانية: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ [ص: ٤] وإمَّا أنه كاذب في تعميم الرِّسالة كما يقول النَّصارى الذين يداهنون المسلمين، وانخدعَ بهم بعضُ العرب قالوا: محمدٌ رسولُ الله لكن إلى العرب فقط. ولبَّسوا على النَّاسِ بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الجمعة: ٢] وهم يقولون: نحن لسنا بأميين، نحن مِن بني إسرائيل مِن أهل الكتاب.

والنصارى يقولون: رسولنا عيسى، ويَغْلُون به حتى جعلوه إلهًا مع الله.

واليهود يقولون: عيسى كاذبٌ ابن زانية - والعياذ بالله - مقتولٌ مصلوبٌ، ونبيهم موسى.

وعلى كُلٍّ؛ نقول لمن ادعى خصوصية رسالة الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في العرب: هل تؤمن بأنه رسول؟

إذا قال: نعم، نقول: هل الرسول يكذب؟

إنْ قال: نعم، بطلت شهادتُه، فالرَّسولُ لا يكذب، وإنْ قال: لا، قلنا: اقرأ قولَ الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨]. أما أن تُلبِّس وتأتي بآيات متشابهة فإنك أحقُّ مَنْ يدخلُ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].(١)

(١) انظر الشرح الممتع ٣/ ١٤٦ .وفتح ذي الجلال والإكرام ٣/ ٣٥٢ . والشرح المختصر على بلوغ المرام ١/ ٥٦٤ . والتعليق على المنتقى ١/ ٣٢٤ . والتعليق على صحيح مسلم ٣/ ٧٢ . والتعليق على صحيح البخاري ٣/ ٥٣٧ . وشرح رياض الصالحين ٤/ ٤٨١ .

فصل

وعـن ابن عباسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: «كان رســول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يعلمنا التشهد: التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، الســلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، الســلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله». رواه مسلم وأبو داود بهذا اللفظ.

الشرح

قوله: «كان رســول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يعلمنا التشــهد» تقدم لنا ذكر التشــهد الذي كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يعلمه ابن مسعود وأمره أن يعلمه الناس وهو: «التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، الســلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشــهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول عبده ورســوله»، وهنا صفة أخرى علمها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ابن عباسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا وهــي: «التحيــات المباركات، الصلــوات الطيبات لله»،

وهـذه الصفة تختلـف في بعض الجمل عن حديث ابن مسـعود، والفـرق بينهمـا في قولـه: «المبـاركات» فهي ليسـت موجودة في حديـث ابن مسـعود رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، و«المباركات» التـي جعل الله فيها البركة مثل قولـه تعالى: ﴿تَحِيَّةً مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:٦١]. فوصفها بالبركة والطيب.

ومن الفروق أيضـًا أن في آخر حديث ابن مسعود، «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» وفي حديث ابن عباس: «وأشهد أن محمداً رسول الله».

هـذا هو التشـهد الذي علمه النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أمته وأمر من بلغه أن يعلمه الناس.

وقـد اختلف العلمـاء بأيهما نختـار؟ فاختار بعـض العلماء تشهد ابن مسعود، وقال: لأنه ثابت في الصحيحين، فهو أقوى من حديث ابن عباسٍ الثابت في مسلم، ولأنه فيه عطف لهذه الجمل: «التحيات لله، والصلوات والطيبات»، أما تشهد ابن عباس فليس فيه عطف، والعطف يقتضي المغايرة، فيكون حديث ابن مسـعود

دالاً على معنى أكثر من حديث ابن عباس، ولهذا رجحوا حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولكن الصحيح: أنه لا ترجيح ما دام يمكن العمل بالحديثين جميعًا كما هو القاعدة المتبعة فيما إذا وردت النصوص مختلفة وأمكن الجميع بينها فإننا لا نلجأ إلى الترجيح، لأن الترجيح معناه: الأخذ بالراجح وإهمال الآخر، وهذا لا ينبغي، والجمع هنا ممكن، وهو أن نقول هذا أحيانًا وهذا أحيانًا لنعمل بالسنة، وهذا هو الصحيح أنه ينبغي للإنسان أن يتشهد بما دل عليه حديث ابن مسعود أحيانًا، وأحيانًا بما دل عليه حديث ابن عباس لأن هذا هو المشروع في العبادات الواردة على وجوه متنوعة، حتى يأتي بالسنة على وجهيها، وحتى تحفظ السنة، ولذلك الذين يستمرون على حديث ابن مسعودٍ لو تسألهم عن حديث ابن عباسٍ لا يعرفونه، فإذا عمل بالنصين جميعًا صار في ذلك حفظًا للسنة .

أيضًا: أبلغ في الثناء على الله، لأنه يكون في هذا الذكر ما ليس في الثاني.

أيضـًا: أن الإنسان يستحضر ما يقول، لأنه إذا ذكر الله بهذا الذكر في هذه المرة ثم ذكره بالذكر الآخر في المرة الثانية صار قلبه حاضراً، أما إذا لزم ذكرًا واحدًا فصار- كما يقولون- كالآلة التلقائية يقرأ على العادة بخلاف ما إذا جعل نفسه تتطلع مرةً إلى هذا ومرةً إلى هذا صار عنده استحضار أكثر.

أيضـًا :أن هذا أيسر على المكلف فيما إذا كانت الأنواع بعضها أيسر من بعض فإنه في بعض الأحيان ما يناسبه إلى الأسهل والأيسر .

أيضـًا: أن الإنسان لا يمل إذا بقي على صفة واحدة .

أيضـًا: يستشعر أنه متعبد لله عَزَّوَجَلَّ لأنه إذا بقي على وتيرة واحدة فإنه يفعل هذا الشيء بدون استشعار للعبودية لأنه على العادة، ولهذا ما يدري إلا وهو في آخر التشهد على العادة بخلاف ما لو عود نفسه فمرة يفعل هذا، ومرة يفعل هذا، فهذه من فوائد إتيان العبادات على وجوهٍ متنوعة .

وهذه القاعدة هي التي مشـى عليها شـيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكثيـر من أهـل العلـم أن العبـادات الواردة علـى وجوه متنوعة ينبغي للإنسان أن يعمل بها كلها.[1]

❊❊❊

(١) انظر التعليق على المنتقى ١/ ٣٣٦. وفتح ذي الجلال والإكرام ٣/ ٣٨٤. والتعليق على مسلم ٣/ ٨١.

باب ما جاء في الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

عن أبي مسعودٍ الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتانا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك، فكيف نصلي عليك؟ فسكت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قولوا: «اللهم صل على محمدٍ، وعلى آل محمدٍ، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمدٍ، وعلى آل محمدٍ، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد». رواه أحمد ومسلم والنسائي والترمذي وصححه.

الشرح

قوله: «اللهم صل على محمد» «اللهم» معناها: يا الله. لكن حُذفت ياء النداء، وعُوِّضَ عنها الميم، وجُعِلت الميم في الآخر تيمُّنًا بالبداءة باسم الله عَزَّوَجَلَّ، وكانت ميمًا ولم تكن جيمًا ولا حاءً ولا خاءً، لأن الميم أدلُّ على الجَمْعِ، ولهذا تجتمع الشفتان فيها، فكأن الدَّاعي جمع قَلْبَه على رَبِّه ودعا وقال: اللَّهُمَّ.

إعـراب «اللَّهُـمَّ»: «الله» منـادى مبنيٌّ علـى الضَّـمِّ في محلِّ نصـب. ومعنى «الله»: أي: ذو الألوهية الذي يألهه كلُّ مَن تعبَّد له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: «صلِّ على محمد» الأمر هنا للإرشاد: لأنهم سألوا عن الكيفيـة ولم يسـألوا عن حكم الصلاة، لكن أصـل الصلاة واجبة بقولـه تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب:٥٦].

وقولـه: «صلِّ على محمد» قيل: إنَّ الصَّـلاةَ مِن الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن الآدميين الدُّعاء.

فإذا قيل: صَلَّتْ عليه الملائكة، يعني: استغفرت له.

وإذا قيل: صَلَّى عليه الخطيبُ يعني: دعا له بالصلاة.

وإذا قيل: صَلَّى عليه الله، يعني: رحمه.

وهذا مشـهورٌ بين أهـل العلم، لكن الصحيـح خِلاف ذلك، أن الصَّلاةَ أخصُّ من الرحمة، ولذا أجمع المسـلمون على جواز الدُّعـاء بالرحمـة لكلِّ مؤمـن، واختلفـوا: هل يُصلَّـى على غير

الأنبياء؟ ولو كانت الصَّلاةُ بمعنى الرحمة لم يكن بينهما فَرْقٌ، فكما ندعو لفلان بالرحمة نُصلِّي عليه.

وأيضًا: فقد قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٧] فعطف «الرحمة» على «الصلوات» والعطفُ يقتضي المغايرة فتبيَّن بدلالة الآية الكريمة، واستعمال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ للصلاة في موضع، والرحمة في موضع أن الصَّلاة ليست هي الرحمة.

وأحسن ما قيل فيها: ما ذكره أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ صلاةَ الله على نبيه: ثناؤه عليه في الملأ الأعلى.

فمعنى «اللَّهمَّ صَلِّ عليه» أي: أثنِ عليه في الملأ الأعلى، أي: عند الملائكة المقرَّبين.

فإذا قال قائل: هذا بعيد مِن اشتقاق اللفظ، لأن الصَّلاة في اللُّغة الدُّعاء وليست الثناء.

فالجواب على هذا: أن الصلاة أيضًا من الصِّلَة، ولا شَكَّ أن الثناء على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في الملأ الأعلى من أعظم

الصِّلات؛ لأن الثناء قد يكون أحيانًا عند الإنسان أهمُّ من كُلِّ حال، فالذِّكرى الحسنة صِلَة عظيمة.

وعلى هذا؛ فالقول الرَّاجح: أنَّ الصَّلاةَ عليه تعني: الثناء عليه في الملأ الأعلى.

وقوله: «على محمَّد» قد يقول قائل: لماذا لم يقلْ على النبيِّ أو على نبيك محمَّد، وإنما ذَكَرَه باسمه العَلَم فقط.

الجواب: أنَّ هذا من باب الخبر، والخبر أوسع من الطَّلب.

قوله: «وعلى آل محمَّد» . أي: وصَلِّ على آل محمَّد.

وآل محمد، قيل: إنهم أتباعه على دينه؛ لأن آل الشخص: كلُّ مَنْ ينتمي إلى الشخص، سواءٌ بنسب، أم حمية، أم معاهدة، أم موالاة، أم اتِّباع كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦] .

فيكون «آله» هم أتباعُه على دينِهِ.

وقيل: «آل النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ» قرابته المؤمنون، والقائل بذلك خَصَّ القرابة المؤمنين، فخرج بذلك سائر الناس، وخَرَجَ بذلك

كُلُّ مَن كان كافراً مِن قرابة النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن الصحيح الأول، وهو أن الآل هم الأتباع، لكن لو قُرِنَ «الآل» بغيره فقيل: على محمد وآله وأتباعه. صار المراد بالآل المؤمنين مِن قرابته.

قوله: «كما صَلَّيت على آل إبراهيم» هل الكاف هنا للتشبيه أو للتعليل؟

الجواب: أكثر العلماء يقولون: إنها للتشبيه، وهؤلاء فتحوا على أنفسهم إيراداً يحتاجون إلى الجواب عنه، وذلك بأن القاعدة أن المشبَّه دون المُشبَّه به، وعلى هذا؛ فأنت سألت اللهَ صلاةً على محمَّدٍ وآله دون الصَّلاة على آل إبراهيم؟ ومعلومٌ أنَّ محمداً وآله أفضل مِن إبراهيم وآله، فلذلك حصل الإشكال؛ لأن هذا يعارض القاعدة المتفق عليها وهي: أن المشبَّه أدنى من المشبَّه به.

وأجابوا عن ذلك بأجوبة.

فقال بعض العلماء: إن آل إبراهيم يدخل فيهم محمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لأنه من آله، فإبراهيم أبوه، فكأنه سُئل للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الصَّلاة مرَّتين، مرَّة باعتبار الخصوص «اللهم صَلِّ

على محمَّد»، ومرَّة باعتبار العموم «كما صَلَّيت على آل إبراهيم» ولكن هذا جواب فيه شيء، وليس بواضح.

وقال بعض العلماء: إنها للتعليل - أي: الكاف - وأنَّ هذا مِن باب التوسُّل بفعل الله السابق؛ لتحقيق الفعل اللاحق، يعني: كما أنك سبحانك سَبَقَ الفضلُ منك على آل إبراهيم؛ فألْحِقِ الفضلَ منك على محمد وآله، وهذا لا يلزم أن يكون هناك مشبَّه ومشبَّه به.

فإن قال قائل: وهل تأتي الكاف للتعليل؟

قلنا: نعم، تأتي للتعليل، استمعْ إليها من كلام العلماء، واستمعْ إلى مثالها.

قال ابن مالك:

شَبِّه بكافٍ وبها التَّعليل قد
يُعنى وزائداً لتوكيد وَرَدْ

فأفاد بقوله: «وبها التعليل قد يُعنى» أنه قد يُقصد بها التعليل.

وأمّا المثال فكقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥١] فإن الكاف هنا للتعليل لما سبق.

وكقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٨] أي: لهدايتكم، وإن كان يجوز فيها التشبيه، يعني: واذكروه الذِّكرَ الذي هداكم إليه.

فهذا القول - أعني: أنَّ الكاف في قوله: «كما صَلَّيت» للتعليل من باب التوسل بالفعل السابق إلى تحقيق اللاحق - هو القول الأصحُّ الذي لا يَرِدُ عليه إشكال.

قوله: «وبارك على محمَّد» أي: أنزل عليه البَرَكَةَ، ولهذا جاءت متعدِّية بعلى دون اللام، والبَرَكَة: مأخوذة من «البِرْكَة» وهو مجتمع الماء، ولا يكون إلا على وَجْهِ الكثرة والقرار والثبوت، وعليه فالبَرَكة كثرة الخيرات ودوامها واستمرارها، ويشمَلُ البَرَكَة في العمل والبَرَكة في الأثر.

أما البَرَكة في العمل: فأن يُوفِّق الله الإنسان لعمل لا يُوفَّق له مَن نُزعت منه البَرَكة.

وأما البَرَكة في الأثر: بأن يكون لعمله آثار جليلة نافعة ينتفع بها الناس، ولا شَكَّ أن بَرَكة النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا نظيرَ لها، وذلك لأن

أمَّتـه أكثر الأمم، ولأن اجتهادهم في الخير أكثر من اجتهادِ غيرهم، فَبُورِكَ له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيمن اتبعَه، وبُورِكَ له في عَمَلِ من اتبعَه.

قوله: «وعلى آل محمد كَمَا باركت على آل إبراهيم» سَبَقَ أنَّ الآل إذا أُفرِدت تشـمَلُ جميعَ الأتباعِ، فالمرادُ بآله أتباعه، وسَـبَقَ الشَّاهدُ من كون الآل بمعنى الأتباع، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦] يعني: أتباعه.

أما إذا قُرنـت الآلُ بالأصحـاب والأتبـاع؛ صار المـرادُ بها المؤمنيـن مِـن قرابتِه من بني هاشـم، ومَن تفرَّع منهـم؛ لأن الآل يشمَلُ إلى الجَدِّ الرابع.

ولا عَجَـبَ أن يكـون لِلَّفْـظِ معنًى عنـد الانفـراد، ومعنًى عند الاقتران، فالمسكين مثلاً والفقير بمعنى واحد عند الانفراد، ولكُلِّ واحدٍ منهما معنى عند الاقتران والاجتماع، والبِرُّ والتقوى كذلك؛ لكُلِّ واحدة منهما معنى عند الاقتران، ويتَّفق معناهما عند الافتراق.

والـكاف هنا على القول الـذي رجَّحناه فيمـا مضى في قوله: «كما صَلَّيت» للتَّعليل، وعلى هذا؛ فيكون ذِكْرُها مِن باب التوسُّلِ

بفِعْلِ الله السَّابق إلى فِعْله اللاحق، كأنك تقول: كما أنك يا رَبِّ قد تفضَّلت على آل إبراهيم وباركت عليهم فبارك على آل محمَّد.

قوله: «إنك حميد مجيد»، الجملة هذه استئنافية تفيد التَّعليل.

«حميد»: فعيل بمعنى فاعل، وبمعنى مفعول، فهو حامد ومحمود، حامد لعباده وأوليائه الذين قاموا بأمره، ومحمود يُحمدُ عَزَّوَجَلَّ على ما له من صفات الكمال، وجزيل الإنعام.

وأما «المجيد»: فهي فعيل بمعنى فاعل، أي: ذو المجد. والمجدُ هو: العظمة وكمالُ السُّلطان، ويُقال: «في كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ، واسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَارُ» .

هذا مثلٌ مشهور عند العرب، والمَرْخُ والعَفَار نوعان من الشَّجرِ في الحجاز معروفان، يعني: أنهما أسرعُ الشَّجرِ انقداحًا إذا ضربت بالزَّنْدِ، وإلا ففي كُلِّ الأشجار نار، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس: ٨٠].(١)

(١) انظر الشرح الممتع ٣/ ١٦٢ . وفتح ذي الجلال والإكرام ٣/ ٤٢٦ . والشرح المختصر على بلوغ المرام ١/ ٥٧٥ . والتعليق على صحيح مسلم ٣/ ٨٨ . والتعليق على المنتقى ١/ ٣٥٤، ٣٦١، ٣٧١، ٣٧٣ .

فصل

وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: قلنا: يارسول الله، قد علمنا، أو عرفنا كيف السلام عليك، فكيف الصلاة؟ قال: «قولوا: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد». رواه الجماعة إلا أن الترمذي قال فيه: «على إبراهيم» في الموضعين ولم يذكر آله.

الشرح

قوله: «اللهم صلِّ على محمد» سبق أن الأمر هنا للإرشاد[1]؛ لأنهم سألوا عن الكيفية، وأما الوجوب فإنه معلوم من الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب:٥٦].

قوله: «إلا أن الترمذي قال فيه: «على إبراهيم» في الموضعين

(١) انظر ص ٧٠.

ولـم يذكر آله» على هـذا يكون في الحديث روايتـان، رواية فيها: «كما صليت علـى آل إبراهيم» و«كما باركـت على آل إبراهيم» وروايـة الترمذي: «كما صليت على إبراهيم» و«كما باركت على إبراهيـم» وبقي صورة ثالثة وهي الجمـع بينهما، وقد ورد الجمع بينهمـا في صحيح البخاري قال: «كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم» و«كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم».

وعليه فهل نقول في الصفتين الأوليين بالاقتصار على «إبراهيم» أو الاقتصار على «آله»؟ إنهما صفتان مستقلتان .

أو نقـول: إنهمـا صفتـان حـذف مـن كل واحدة مـا أثبت في الأخـرى، وتكـون روايـة الجمع هـي الأولى، وأن بعـض الرواة اقتصر على إحدى الكلمتين إما نسيانًا وإما اختصاراً ؟

والذي يظهر لي في هذه المسألة هو الثاني؛ لأن الحديث مخرجه واحد، فكله من رواية كعب بن عجرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وبعض الرواة ذكر عنه: «على آل إبراهيم» وبعضهم: «على إبراهيم» وبعضهم: «على إبراهيم وعلى آل إبراهيم» فيكون الزائد معه زيادة علم فهو أولى،

فالـذي يظهر لي في هذا أنهـا صفة واحدة وأن الأصـل فيها رواية الجمع، ويكون الحذف إما من باب الاختصار من بعض الرواة أو من باب النسيان وهو الأقرب؛ لأن القول باختصار بعض الألفاظ فيه صعوبة .

والصـلاة على النبـي ﷺ ورد فيها صفـات متعددة، ومن أحب الوقوف عليها فقد استوعبها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب (جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام) وبحثها بحثًا مستفيضًا.

إذاً صيغ الصلاة على النبي ﷺ مثل صيغ الاستفتاحات والتشهد يجوز أن تقتصر على واحد منها، ولا نقول نأخذ بالألفاظ التـي وردت في الصحيحيـن مثلا دون غيرهـا، لأن المخرج ليس واحداً . لو كان كذلك لقلنا نعم ويكون هذا من ذكر بعض الرواة أو نسـيانهم، لكن هنا في الصلاة على النبي عليه الصلاة والسـلام تجد صيغة وردت عن صحابي وصيغة أخرى وردت عن صحابي آخر فيختلف.[1]

(١) انظر التعليق على المنتقى ١/ ٣٦١ . والتعليق على صحيح مسلم ٣/ ٨٢ .

فصل

عـن أبي حميد السـاعدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنهم قالوا: يارسـول الله كيف نصلـي عليك؟ قال: قولـوا: «اللهم صل على محمد وعلـى أزواجه وذريته كما صليت علـى آل إبراهيم، وبارك على محمـد وأزواجه وذريته كما باركـت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» متفق عليه.

الشرح

هـذا الحديث يدل علـى أن المراد بالآل أزواجـه وذريته، ووجه الدلالـة: أن قولـه: «وعلـى أزواجه وذريتـه» وقعت في محـل قوله: «وعلـى آل محمد» في الأحاديث الأخرى، ولا شـك أن الأزواج من الآل، كما قال الله تعالى في سـورة الأحزاب: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ (الأحزاب:٣٣)، فالخطاب لزوجات الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسـماهن بأهل البيت، ولا شـك أنهن من أهل بيته فإن

بيته ليس فيه سوى أزواجه، وعليه فآل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم أزواجه وذريته على مقتضى هذا الحديث(١).

❋❋❋

(١) انظر التعليق على المنتقى ١/ ٣٧١.

فصل

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل: «اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» رواه أبو داود.

الشرح

هذا أعم من الحديث السابق؛ لأنه ذكر الأزواج والذرية وأهل البيت، وأهل البيت هم: القرابة الأدنون، وفسرهم العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ بأنهم الذين يشاركون الإنسان في الجد الرابع، وأما الذين يشاركون في الجد الخامس فمن علا فليسوا من أهل بيته وليسوا من قرابته؛ ولهذا قالوا: لو وقف الرجل على أهل بيته، فيشمل ذريته ويشمل أباه وجد، وجد أبيه ومن ساواه، يعني: من شاركوه في الجد الرابع شملهم، ومن شاركوه في الجد الخامس فمن فوق لم يشملهم.

قوله: «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت» هذا يدل على تفضيل هذه الصيغة.

قوله: «أمهات المؤمنين» أي: في الحرمة لا في التحريم، فليس المراد بكونهن أمهات أن لهن من التحريم مثل ما للأمهات؛ ولهذا نقول: إن زوجة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليست حراماً على الإنسان تحريماً من أجل النسب، لكن من أجل أنه لا يحل لأحد أن يتزوجهن بعد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذلك أمهات زوجات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يحرمن على المؤمنين، ولو كانت أم المؤمنين بمعنى أنها أمك من النسب فإن أمها تحرم؛ لأنها تكون جدة.

وهذا الحديث والذي قبله يستفاد منهما أن المراد بآل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أزواجه وذريته كما في الحديث الأول المتفق عليه، أو أزواجه وذريته وأهل بيته كما في هذا الحديث الذي رواه أبو داود، والعلماء كما أشرنا سابقاً اختلفوا في ذلك، والأقرب أنه عند الإطلاق أو إذا لم يوجد ذكر الأصحاب والأتباع فالمراد بهم العموم، فيدخل فيهم كل من اتبعه على دينه؛ لأن الله سمى

أتباع الشـخص آلا، كما في قوله تعالـى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ (غافر:٤٦)، وأمـا إذا ذكر مع الآل الأصحـاب والأتبـاع فالمراد بـالآل زوجاته وأقاربـه المؤمنون، ويشمل الذرية[(١)].

❊❊❊

(١) انظر التعليق على المنتقى ١/ ٣٧٣.

باب ما جاء في أدعية آخر الصلاة

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال». متفق عليه. وفي روايةٍ لمسلم: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير».

الشرح

وقوله: (اللهم إني أعوذُ بك) أعوذ: العياذ: هو الالتجاء أو الاعتصام مِن مكروه، يعني: أن يعتصم بالله من المكروه.

واللِّياذ: أن تلجأ إليه لحصول المطلوب، كما قال الشاعرُ:

يا مَنْ أَلُوذُ به فيما أُؤَمِّلُهُ
ومَنْ أعُوذُ به مِمَّا أُحَاذِرُهُ
لا يَجْبُرُ النَّاسُ عظمًا أنت كاسِرُهُ
ولا يَهيضُونَ عظمًا أنت جَابِرُهُ

فجعـلَ اللِّيـاذ فيمـا يُؤَمَّـل، والعياذ فيمـا يُحذَرُ مِن الأشـياء المكروهة.

وهذان البيتان لا يصلحان إلا للهِ تعالى، وإنْ كان قائلُهما يَمدحُ بهما مخلوقًا، فهما مِن شطحاتِ الشُّعراء.

قوله: «من عذاب جهنم» أي: العذاب الحاصل منها، فالإضافة هنـا على تقدير «من» فهي جنسـيَّة كما تقـول: خاتم حديد، أي: خاتم مِن حديد، ويحتمل أن تكون الإضافة على تقدير «في»، أي: عذابٌ في جهنم كما قال تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٣٣] أي: مكرٌ في الليل، والإضافة تأتي على تقدير «مِن» وعلى تقدير «في» وعلى تقدير «اللام» وهي الأكثر.

وقولـه: «جهنم» عَلَمٌ على النَّارِ التـي أعدَّها عَزَّوَجَلَّ للكافرين، قـال تعالـى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾ [آل عمران: ١٣١]، وهذه النَّار وَرَدَ في صفاتها وصفات العذاب فيها في الكتاب والسُّنَّة ما تقشعِرُّ منه الجلودُ.

وقولـه: «من عذاب جهنَّم» هل المـراد أنه يتعوَّذ بالله من فِعْلِ

المعاصـي المؤدِّية إلى جهنم، أو يتعوَّذ بالله من جهنَّم، وإن عَصَى فهو يطلب المغفرة من الله، أو يشمَلُ الأمرين؟

الجواب: يشـمَلُ الأمرين، فهو يستعيذُ بالله مِن عذاب جهنَّم، أي: مِن فِعْلِ الأسباب المؤدِّية إلى عذاب جهنَّم.

ومِـن عذاب جهنَّـم، أي: من عقوبة جهنَّم إذا فَعل الأسـباب التي توجب ذلك؛ لأن الإنسان بين أمرين: إمَّا عصمة مِن الذُّنوبِ، فهذا إعاذة الله من فِعْلِ السـبب، وإما عفوٌ عن الذُّنوبِ وهذا إعاذة الله مِن أَثَرِ السبب.

وقولنا: العصمـة مِن الذُّنوب، ليس معنـاه العصمة المطلقة؛ لأن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـال: «كلُّ بني آدم خَطَّاء، وخيرُ الخَطَّائين التوَّابُون» .

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو لم تُذنبوا؛ لذهبَ الله بكم، ولجاء بقومٍ يُذنبون؛ فيستغفرون الله؛ فيغفر لهم» .

قوله: «ومن عذاب القبر».

معطوفـة علـى «مِن عذاب جهنَّـم» وعذاب القبـر ما يحصُل

فيه من العقوبة، وأصل القبر مدفن الميِّت، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١﴾ [عبس: ٢١] قال ابنُ عباس: «أي: أكرمه بدفنه».

وقد يُراد به البرزخ الذي بين موت الإنسان وقيام الساعة، وإن لم يُدفن، كما قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون: ١٠٠] يعني: مِن وراء الذين ماتوا؛ لأن أوَّلَ الآية يدلُّ على هذا، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

فهل الدَّاعي إذا استعاذ بالله مِن عذابِ القبر؛ يريد مِن عذاب مدفن الموتى، أم مِن عذاب البرزخ الذي بين موته وبين قيام السَّاعة؟

الجواب: يُريد الثاني؛ لأن الإنسان في الحقيقة لا يدري هل يموت ويُدفن، أو يموت وتأكله السِّباع، أو يَحترق ويكون رماداً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ [لقمان: ٣٤] فاستحضر أنك إذا قلت: «من عذاب القبر» أي: مِن العذاب الذي يكون للإنسان بعد موتِه إلى قيام السَّاعة.

قوله: «ومـن فتنة المحيا والممات» معطوفة على «من عذاب جهنـم» والمراد بالفتنة اختبار المرء في دينه؛ في حياته وبعد مماته، وفتنة الحياة عظيمة وشـديدة، وقلَّ من يتخلَّص منها إلا مَنْ شـاء الله، وهي تدور على شيئين:

١. شُبُهات. ٢. شهوات.

أما الشُّـبُهات فتعرض للإنسـان في عِلْمِـهِ، فيلتبس عليه الحقُّ بالباطـل، فيرى الباطل حقًّا، والحـقَّ باطلاً، وإذا رأى الحقَّ باطلاً تجنَّبه، وإذا رأى الباطلَ حقـًا فَعَلَهُ، وأمَّا الشَّهوات فتعرض للإنسان في إرادته، فيريد بشـهواته ما كان محرَّمـًا عليه، وهذه فتنة عظيمة، فما أكثـر الذين يرون الرِّبا غنيمة فينتهكونه! وما أكثر الذين يرون غِشَّ النَّاسِ شـطارةً وجَودةً في البيع والشِّـراء فيغشُّـون! وما أكثر الذين يرون النَّظَرَ إلى النسـاء تلذُّذاً وتمتُّعـًا وحرية، فيطلق لنفسه النظر للنساء! بل ما أكثر الذين يشربون الخمر ويرونه لذَّة وطربـًا! ومـا أكثر الذين يـرون آلاتِ اللهو والمعازف فنًّـا يُدرَّسُ ويُعطى عليه شهادات ومراتب!

وأما فتنة الممات فاختلف فيها العلماءُ على قولين:

القـول الأول: إن فتنة الممات سـؤال الملكين للميِّت في قَبْرِه عـن ربِّه، ودينـه ونبيِّه؛ لقـول النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنـه أُوحِيَ إلي أنكـم تُفتنون في قبوركم مثل أو قريبـًا من فتنة المسـيح الدَّجَّال».

فأمَّا مَنْ كان إيمانُه خالصـًا فهذا يسهل عليه الجواب.

فإذا سُئل: مَنْ ربُّك؟ قال: ربِّي الله.

مَنْ نبيُّك؟ قال: نبيِّي محمَّد.

ما دينك؟ قال: ديني الإسلام. بكلِّ سُهولة.

وأما غيره - والعياذ بالله - فإذا سُئل قال: هاه... هاه... لا أدري؛ سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته.

وتأمل قوله: «هاه... هاه...» كأنه كان يعلم شـيئًا فنسيه، وما أشـدَّ الحسـرة في شـيء علمتَه ثم نسـيتَه؛ لأن الجاهل لم يكسب شيئًا، لكن النَّاسي كسب الشيء فخسره، والنتيجة يقول: لا أدري مَنْ ربِّي، ما ديني، مَنْ نبيي. فهذه فتنة عظيمة؛ أسألُ الله أن ينجِّيني وإيَّاكـم منها، وهـي في الحقيقة تدور على مـا في القلب، فإذا كان

القلب مؤمنًا حقيقة يرى أمور الغيب كرأي العين، فهذا يجيب بكلِّ سُهولة، وإن كان الأمر بالعكس فالأمر بالعكس.

القول الثاني: المراد بفتنة الممات: ما يكون عند الموت في آخر الحياة، ونصَّ عليها - وإنْ كانت مِن فتنة الحياة - لعظمها وأهميتها، كما نصَّ على فِتنة الدَّجَّال مع أنها مِن فتنة المحيا، فهي فِتنة ممات؛ لأنها قُرب الممات، وخصَّها بالذِّكر؛ لأنها أشدُّ ما يكون، وذلك لأن الإنسان عند موته ووداع العمل صائر إما إلى سعادة، وإما إلى شقاوة، قال الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن أحدَكُم ليعملُ بعملِ أهلِ الجنَّة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتابُ؛ فيعملُ بعملِ أهل النَّارِ» فالفتنة عظيمة.

وأشدُّ ما يكون الشيطانُ حرصًا على إغواء بني آدم في تلك اللحظة، والمعصومُ مَنْ عَصَمَه الله، يأتي إليه في هذه الحال الحرجةِ التي لا يتصوَّرها إلا من وقع فيها قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠]، حال حرجة عظيمة، الإنسانُ فيها ضعيفُ النَّفْسِ، ضعيفُ الإرادة، ضعيفُ القوَّة، ضيقُ الصَّدر،

فيأتيه الشيطانُ ليغويه؛ لأن هذا وقت المغنم للشيطان، حتى إنه كما قال أهل العلم: قد يعرضُ للإنسان الأديان اليهودية، والنصرانية، والإسلامية بصورة أبويه، فيعرضان عليه اليهودية والنصرانية والإسلامية، ويُشيران عليه باليهودية أو بالنصرانية، والشيطان يتمثَّلُ كُلَّ واحد إلا النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه أعظم الفِتَنِ.

ولكن هذا والحمد لله لا يكون لكلِّ أحد، كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وحتى لو كان الإنسان لا يتمكَّن الشيطان من أن يَصِلَ إلى هذه الدرجة معه، لكن مع ذلك يُخشى عليه منه.

يقال: إنَّ الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو في سكرات الموت كان يُسمَعُ وهو يقول: بعدُ.. بعدُ. فلما أفاق قيل له في ذلك؟ قال: إنَّ الشيطان كان يعضُّ أنامله يقول: فُتَّني يا أحمد. يعضُّ أنامله ندمًا وحسرة كيف لم يُغوِ الإمام أحمد؟ فيقول له أحمد: بعدُ.. بعدُ. أي: إلى الآن ما خرجت الرُّوح، فما دامت الرُّوح في البدن فكلُّ شيء وارد ومحتمل ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] في هذه الحال فتنة عظيمة جدًّا، ولهذا نصَّ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليها قال: «مِن فِتنة المحيا والممات».

فالحاصل: أنَّ فتنة الممات فيها تفسيران:

* التفسير الأول: الفتنة التي تكون عند الموت.

* والثاني: التي تكون بعد الموت، وهي سؤال الملكين الإنسان عن رَبِّه ودينه ونبيِّه.

ولا مانع بأن نقول: إنَّها تشمَلُ الأمرين جميعًا، ويكون قد نصَّ على الفتنة التي قبل الموت وعند الموت؛ لأنَّها أعظم فتنة تَرِدُ على الإنسان، وذكر ما يُخشى منها من سوء الخاتمة إذا لم يُجِرِ اللهُ العبد من هذه الفتنة.

وعلى هذا، ينبغي للمتعوِّذ مِن فِتنة الممات أن يستحضر كلتا الحالتين.

قوله: «وفتنة المسيح الدَّجَّال» . معطوفة على قوله: «مِن عذاب جهنَّم» المراد بفتنة المسيح الدَّجَّال ما يحصُلُ به مِن الإضلال والإغواء بما معه من الشُّبهات و«المَسيْح» فعيل بمعنى مفعول من المسح؛ لأنه يمسح الأرض بسرعة سيره فيها، أو لأنه كان ممسوح العين؛ لأنه أعور العين اليُمنى، كأن عينه عِنَبَة طافية، أو عنبة طافئة.

إن كانت طافئة فهي خابئـة، أي: أنها غائرة، وإن كانت طافية بالياء فهي كالعنبة الطافية فوق الماء أي: أنها ناتئة.

وعلى كُلٍّ؛ فإن هذا المسـيح الدَّجَّال فِتنته مِن فتنة الدُّنيا؛ لأنه لا يَفتن إلا الأحياء، فالأموات قد سَلِموا منه.

فإن قال إنسان: إذا كان مِن فِتنة الدُّنيا أو مِن فِتنة المحيا، فلماذا ذُكِرَ وحده؟

فالجواب: لأن أعظمَ فِتنة على وَجْهِ الأرض منذ خُلق آدم إلى قيام السـاعة هي فِتنـةُ الدَّجَّال، كما قـال ذلك النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهـذا ما من نبيٍّ مِن نوح إلى محمَّد صلوات الله وسـلامه عليهم إلا أنذر قومَه منه تنويهـًا بشـأنه وتحذيراً منه، وإلا فإن الله يعلم أنه لن يخرج إلا في آخر الزمان، ولكن أَمَرَ الرُّسل أن ينذروا قومهم إيَّاه مـن أجل أن يتبيَّن عِظَمُه وفداحتـه، وقد صَحَّ ذلك عن النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّـلامُ وقال: «إنْ يخرجْ وأنا فيكم، فأنا حَجيجُهُ دونكم - يعنـي: أكفيكم إيَّاه - وإن يخرجْ، ولسـت فيكم؛ فامرؤٌ حجيجُ نفسـه، والله خليفتـي على كلِّ مسـلم» نِعْمَ الخليفـةُ ربُّنا جَلَّ وَعَلَا.

لذلك كان الدَّجَّال حريًّا بأن تُخصَّ فِتنته من بين فِتَنِ المحيا.

وأمـا الدَّجَّال فهو مأخوذ مـن الدَّجَل وهـو التمويه؛ لأن هذا أعظم مموِّه، وأشدُّ الناس دجلاً.[1]

***

(١) انظر الشرح الممتع ٣/ ١٦٨ . وفتح ذي الجلال والإكرام ٣/ ٤٤٦ . والشرح المختصر على بلوغ المرام ١/ ٥٨١ . والتعليق على صحيح مسلم ٣/ ٥١٠ . والتعليق على المنتقى ١/ ٣٧٧ . وشرح رياض الصالحين ٥/ ٥٠٣ . والتعليق على صحيح البخاري ٣/ ٥٣٩ .

فصل

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كان يدعو في الصلاة: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، ومن، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات، اللهم إني أعوذ بك من المغرم والمأثم». رواه الجماعة إلا ابن ماجه .

الشرح

قوله: «اللهم إني أعوذ بك من المغرم والمأثم»، «المغرم»: دين الآدمي، و«المأثم»: دين الله، فالمغرم: الدين الذي يكون به الإنسان غريمًا، وسئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أكثر ما تستعيذ من المغرم؟» فقال: «إن الرجل إذا غرم حدث فكذب، ووعد فأخلف»، وهذا هو الغالب على الناس المدينين، فتجده مثلا إذا جاءه صاحب الحق يطالبه بحقه، يقول له: أعطيك غداً. ولا يعطيه، ونحو ذلك، وكلتا الصفتين من صفات المنافقين، ومما

يحرمه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما «المأثم»: فالمراد به الإثم، أو ما يحصل به الإثم، فهو إما العمل الذي يحصل به الإثم، وإما الإثم نفسه، وهذا غرم في حق الله، فالإنسان إذا ترك واجبًا أثم، وإذا فعل محرمًا أثم، وصار غريمًا لله، أي: مدينًا له، حيث أخل بما يجب عليه لله من الطاعة بامتثال الأمر واجتناب النهي، فهذا التعوذ في الحقيقة جامع لكل ما يكون على الإنسان من حقوق الله ومن حقوق الناس[(١)].

❋❋❋

(١) انظر التعليق على المنتقى ١/ ٣٨٩، والتعليق على صحيح البخاري ٣/ ٥٣٩.

فصل

وعن أبي بكرٍ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يقول لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «علمني دعاءً أدعو به في صلاتي. قال: قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم». متفق عليه.

الشرح

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «علمني دعاء أدعو به في صلاتي» ولم يقل: قبل التسليم، ولا في السجود، ولا بين السجدتين، فهو مطلق في أي مكان دعا به الإنسان فهو خير، وتأمل من الطالب؟ ومن المطلوب؟ ومكان الطلب؟

فالطالب: أبو بكر، وهو أحب الناس إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والمطلوب: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أنصح الناس للخلق.

ومكان الطلب: الصلاة، وهي أقرب عمل يكون الإنسان فيه إلى ربه، فهذا مما يدل على فضيلة هذا الدعاء، وآكديته: حال الطالب والمطلوب ومكان الدعاء، فهو دعاء مختار لمكان مختار.

قوله: «قول: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيراً» هذا توسل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بذكر حال الداعي، وأنه ظالم، يعني: وإذا كنت ظالمًا فأنا محتاج إلى المغفرة.

قوله: «ولا يغفر الذنوب إلا أنت» هذا توسل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بصفته، فالأول: توسل بحال الداعي، والثاني: توسل بصفة المدعو.

قوله: «فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني» هذا هو المطلوب.

قوله: «إنك أنت الغفور الرحيم» هذا ختام بالثناء على المدعو.

وجمع هذا الدعاء الصيغة الكاملة للدعاء؛ لأن الدعاء أحيانًا يكون بذكر حال الداعي فقط، وأحيانًا يكون بذكر وصف

المدعو فقط، وأحيانًا يكون بالطلب المجرد فقط، وأحيانًا يكون بالجميع.

فمثال الذي فيه ذكر الطلب فقط: إذا قلت: «اللهم اغفر لي».

ومثال الذي يكون بذكر حال الداعي فقط: قول موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، في قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ (القصص:٢٤)، فهنا لم يذكر غير حال الداعي الموجبة للعطف والرحمة.

ومثال الذي يكون بذكر حال الداعي وذكر الطلب: مثل قول موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ (القصص:١٦).

والأكمل ما ذكر فيه حال الداعي والمدعو والطلب، كما في هذا الحديث؛ ولهذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علمه أجمع حديث في الصيغة وفي المطلوب، قال: «فاغفر لي مغفرة من عندك» أضافها إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه كلما كانت المغفرة من الله كانت أكمل؛ إذ إن العطاء بقدر المعطي، والله عَزَّوَجَلَّ هو أكرم المعطين.

وقولـه: «وارحمنـي» هـذه يكـون بهـا حصـول المطلوب، والمغفرة بهـا النجاة من المرهوب، ثم أثنى على الله بقوله: «إنك أنت الغفور الرحيم».

وقوله: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا» الظلم الذي ظلم الإنسان به نفسـه هو ظلمها بالمعاصي، فأي معصية يفعلها العبد إما تـرك واجب أو فعل محـرم فهو ظلم نفسـه؛ لأن النفس أمانة عنـدك يجب عليك رعايتها بأحسـن رعاية، فـإذا جعلتها ترتع في المعاصي فإنك لا تكون محسـنًا لها؛ بل تكون ظالمـًا لها، وانظر إلى راعي الغنم إذا كان عنده ثلاث شـعب من الوادي: شـعبة منه ليس بها نبات، وشعبة منه فيها نبات مضر، وشعبة منها فيها نبات نافع، فإذا سلك بها الشعبة التي بها النبات النافع فقد أحسن، وإذا سلك الشعبة التي ليس فيها شيء فقد أساء حيث فوتها مطلوبها، ويعتبر ظالمـًا في هذه الحال، وإذا سلك بها الشعبة التي فيها نبات مضر فقد أساء أيضـًا، حيث أوقعها فيما فيه هلاكها.

ومثـل ذلك نفس الإنسـان مـع عقله وتصرفه، فإن سـلك بها

طرقـًا ليس فيها مصلحة لها فقد ظلمهـا حيث لم يختر لها ما فيه النفـع، كرجل لـم يفعل الطاعـة المطلوبة منه، فهـذا نقول: فرط وظلـم حيـث لم يفعـل ما فيـه الخير، ورجل آخر سـلك بنفسـه طرق المعاصي من شـرب الخمر والزنـا واللواط والاعتداء على أعراض الناس وأموالهم، فهذا يشـبه الذي سـلك بها الشعبة التي فيهـا النبـات المضر؛ لأنهـا تناولت أشـياء تهلكها، وأمـا الثالث فرجل يبعد بنفسـه عـن المعاصي ويرغمها علـى فعل الطاعات، فهذا الرجل أحسن إلى نفسه غاية الإحسان؛ لأنه سلك بها الطرق النافعة، وجنبها الطرق الضارة.

وقولـه: «لا يغفـر الذنـوب إلا أنت» هذا حـق، فلو اجتمعت الأمـة على أن يغفـروا ذنبًا واحـداً لرجل ما اسـتطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولكن لو أن رجلاً غفر لشخص ما أساء إليه به فهذا ممكن، كمـا قال تعالـى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ (الجاثية:١٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ (التغابـن:١٤)، لكـن إذا كان الذنـب مـن حق الله

فلا يمكن لأحد أن يسقطه إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

وقولـه: «فاغفر لي» هذا فعل دعاء؛ يسـمونه بذلك تأدبًا مع الله، إذ إنـه لا يمكـن أن تصدر الأمر إلى الله، وإنما تصدر الدعاء والرجاء، فهو فعل دعاء لا فعل أمر[1].

❊❊❊

(١) انظر فتح ذي الجلال والإكرام ٣/ ٤٦٤، والتعليق على المنتقى ١/ ٣٩٣، والتعليق على صحيح البخاري ٣/ ٥٤٤.

فصل

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي، وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي، وَهَزْلِي، وَخَطَئِي، وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ، وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَالْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

الشرح

هذا دعاء مفصل وجامع، وكله في دفع ما يضر الإنسان، أي كل هذا من سؤال الله تعالى أن يدفع ما يضر الإنسان.

قوله: «اللهم اغفر لي خطيئتي»: وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون».

قوله: «وجهلي»: وهذا مقابل الخطيئة، فالخطيئة ما فعله عن

عمـد، والجهل ما فعله عن خطأ، والفرق بين الخطيئة والخطأ أن الخطيئة أن يرتكب الإنسان الخطأ عن عمد، وسيأتي معنى الخطأ في قوله: «وخطئي، وعمدي».

فإن قال قائل: هل الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يتعمد الخطأ؟

قلنا: لا يمكـن أن يتعمده بقصد الخطـأ، وإنما يتعمده لكونه يظن أن ذلك خير، ولكن يتبين أن الأمر بخلافه؛ لأن الرسول بشر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فإن قال قائل: كيف يقول: «اللهم اغفر لي» وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟

فيمكن أن يجاب بأن هذا قبل أن تنزل الآية، وهذا فيه شـيء من الضعـف؛ لأنه لا يمكـن الجزم بذلك إلا بعد العلـم بالتاريخ، وأبو موسى الأشعري من وفود الأشعريين المتأخرين، ولكن يقال جواب أحسن من ذلك، وهو: أن دعاء الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالمغفرة من جملة أسباب مغفرة الله عَزَّوَجَلَّ، فيكون الله تعالى وعده بأن يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بأسباب، منها أن يستغفر الله عَزَّوَجَلَّ.

والله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ (الأحزاب:٥٦) ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ (الأحزاب:٥٦)، فقد يقول قائل: ما الفائدة من صلاتنا عليه وقد أخبرنا الله بأنه يصلي عليه؟

نقول: من أسباب صلاتنا عليه أن ندعو له بذلك، وعلى هذا فلا منافاة.

قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «وجهلي»: أي ما فعلته عن جهل؛ لأن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لا يعلم الغيب، وقد يفعل الشيء يظنه صوابًا فيكون خطأً؛ إلا أنه يفرق بينه وبين غيره أنه لا يقر على الخطأ.

قوله: «وإسرافي في أمري»: الإسراف مجاوزة الحد، والأمر بمعنى الشأن، أي إسرافي في كل شؤوني، وهذا من كمال صفاته عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أنه يكره الإسراف، ويسأل الله تعالى أن يغفر له ما أسرف، فالرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بشر قد يتجاوز الحد في مأكله أو مشربه أو ملبسه أو مسكنه أو مقاله أو أفعاله، فالإنسان معرض لهذا.

قولـه: «ومـا أنت أعلم به مني»: فـإن الله عَزَّوَجَلَّ أعلم بك منك في أفعالك؛ لأن علمه بما فعلت لا ينسى، وعلمك أنت بما فعلت ينسى، وإلا فمن المعلوم أن ما لا يفعله الإنسان لا يؤاخذ به، لكن ما يفعله وينساه فقد يؤاخذ به، وهكذا يكل المرء علم ما ينساه إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

فالرسـول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: «وما أنت أعلم به مني» ليس المراد الذنب في المستقبل، فهذا لا مؤاخذة فيه، بل المراد الذنب الماضي الذي قد يكون الإنسان نسيه، فيسأل الله أن يغفره.

قولـه: «اللهم اغفر لـي جدي، وهزلي، وخطئـي، وعمدي»: هذا الذكر فيه إشكالات:

أولاً: «الجـد» ضـد الهزل، وهو ما قصده الإنسـان بلفظه، أو بفعله؛ لأن الإنسان قد يلفظ لفظًا يكون مازحًا هازلاً، وقد يفعل فعلاً يكون هازلاً مازحًا، وقد يكون جاداً في ذلك، فالمراد بالجد هنا ضد الهزل؛ بدليل أنه عطف عليه قوله: «وهزلي».

فإن قال قائل: وهل الهزل يؤاخذ به الإنسان؟

قلنا: نعم، يؤاخذ به الإنسان، أحيانًا يكون هزل من كبائر الذنوب، وأحيانًا يكون هزل مما يخرج الإنسان من الإيمان، فلو هزل بشيء من آيات الله، أو بشيء من أحكام الله، أو بشيء من صفات الله، أو بالله عَزَّوَجَلَّ، فإنه يكون كافراً.

قوله: «وخطئي»: الخطأ يعني ما أخطأ به الإنسان، وهو كقوله تعالى ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة:٢٨٦).

فإن قال قائل: كيف يسأل الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن الله تعالى يغفر له خطأه، مع أن الله تعالى قال: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة:٢٨٦)، فقال الله: «قد فعلت»؟

فالجواب عن هذا من وجهين:

أولاً: قد يكون هذا الدعاء قبل نزول الآية، فالآية مدنية.

ثانيًا: قد يكون هذا من أجل أن الإنسان قد يفعل الخطأ مع تقصير في معرفة الصواب، وهذا يقع كثيراً، بمعنى أن الإنسان يتهاون ولا يحتاط، ولا يبحث بعمق عن معرفة الخطأ من الصواب، وهذا يقع كثيراً، بمعنى أن الإنسان يتهاون ولا يحتاط،

ولا يبحث بعمق عن معرفة الخطأ من الصواب، فيكون بذلك مقصراً.

قوله: «وعمدي»: أي ما فعلته عن عمد، ونقول: كيف نفسر «عمدي» بأنه ما فعلته عن عمد، مع أننا فسرنا «اغفر لي خطيئتي وجهلي» بأن الخطيئة ما فعله عن عمد؟

والجمع إما أن يقال: إن باب الدعاء لا بأس أن تكرر فيه الكلمات بمعنى واحد؛ وإما أن يقال: الخطأ في الأول هو ترك الواجب، وفي الثاني فعل المحرم الذي يخطئ به الإنسان كثيراً.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وكل ذلك عندي»: هذا إقرار واعتراف من العبد بأن كل هذه الأشياء التي سأل الله أن يغفرها له كلها عنده، والإقرار بالذنب بالنسبة لله عَزَّوَجَلَّ هو دعاء، يعني أنت إذا أقررت عند ا لله عَزَّوَجَلَّ بذنبك فكأنك تدعوه، كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدعاء الذي علمه أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيراً»، وهذا اعتراف بالذنب، وحقيقته أنك تدعو الله عَزَّوَجَلَّ أن يعفو عنك ما ظلمت به نفسك.

قولـه: «اللهم اغفر لي ما قدمـت»: أي مما يحتاج إلى مغفرته مـن تفريط في واجب، أو فعل محرم، واعلم أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يدعـو بذلك على سـبيل التذلل لله عَزَّوَجَلَّ، وإلا فإنه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لا يُقَرُّ على محرم.

قولـه: «وما أخرت»: أي ما يأتـي متأخراً، أي بعد قولي هذا؛ لأن قول الإنسـان محفوف بزمنين: زمن سابق، وزمن لاحق، فما فعله في الزمن السـابق فهو ما قدم، وما فعله في الزمن اللاحق فهو ما أخر.

قوله: «وما أسـررت، ومـا أعلنت»: ما يفعله الإنسـان إما أن يفعله سـراً، وإما أن يفعله علنا، ولا شـك أن فعله جهراً أشد عند الله تعالى مما فعله سراً، وهذا باعتبار الذنوب والمعاصي، فإن من أسر بالذنب ليس كمن أعلنه، فالمعلن أشد وأقبح والعياذ بالله.

قولـه: «وما أنت أعلم به منـي»: هذه مع الأول مكررة، لكن- كمـا قلنـا- إن الدعاء لا بأس فيـه من التكـرار، ومعناها: ما أنت أعلم به مما فعلت.

قولـه: «أنت المقدم والمؤخر»: أنت المقدم للأشـياء، وأنت المؤخر لها، فكم من شـيء يتوقع الإنسان أن يقع ثم يتأخر، وكم شـيء لا يتوقعه الإنسـان ثم يأتي، فالمقدم هو الله يقدم ما شـاء، والمؤخر هو الله يؤخر ما شـاء، مثلا يقدم فوز إنسان، ويؤخر فوز إنسـان، يقدم حياة إنسـان ويؤخر حياة إنسـان، يقدم موت إنسان ويؤخر موت إنسان، فالأمر كله بيده عَزَّوَجَلَّ.

قولـه: «وأنت على كل شـيء قديـر»: أي: أن الله تعالى على كل شـيء قديـر، يفعله بـلا عجز، وإن هنـاك صفتيـن متقاربتين متشـابهتين، وهما القدرة والقوة، فالله عَزَّوَجَلَّ على كل شيء قدير، وضد القدرة العجز، وهو - سبحانه وتعالى - قوي على كل شيء، وضد القوة الضعف(١).

❊❊❊

(١) انظر فتح ذي الجلال والإكرام ١٥/ ٥٣٤، والتعليق على المنتقى ١/ ٢٦.

باب ما جاء في التسليم

عن وائلٍ بن حجر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «صليت مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكان يسلم عن يمينه: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وعن شماله: السلام عليكم ورحمة الله» رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح.

الشرح

أي: بعد التشهُّدِ والدُّعاء، يُسلِّم عن يمينه وعن يساره، فيقول، عن يمينه: «السَّلامُ عليكم ورحمةُ الله»، وعن يساره: «السَّلامُ عليكم ورحمةُ الله» وهذا خطابٌ، لكنه خطابٌ يخرجُ به من الصَّلاة، بخلاف الخطابِ الذي يكون في أثناء الصَّلاة.

قوله: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) «السلام عليكم» فيه السلامة من المؤذيات، «ورحمة الله» حصول الكمالات، «وبركاته» الزيادة والثبات، فكل واحدة لها وصف إذا اجتمعت .

وتقـدم لنا[1] معنى «السـلام عليكم» بأنه خبـر بمعنى الدعاء بالسلامة من كل الآفات الدينية والدنيوية .

قوله: «وبركاته» الأولى الاقتصار على «السلام عليكم ورحمة الله» بدون زيـادة وبركاته ؛ لأن أكثر الأحاديـث الواردة عن النبي ﷺ أنه كان يقول : «السـلام عليكم ورحمة الله» فقط ولا يزيد «وبركاته».

❋❋❋

(١) انظر ص ٥٦.

مسألة: إذا قيل: على مَنْ يُسلِّم؟

فالجواب: يقولون: إذا كان معه جماعة فالسَّلام عليهم، وإذا لم يكن معه جماعة فالسَّلام على الملائكة الذين عن يمينه وشماله يقول: السَّلامُ عليكم ورحمة الله.

وإذا سَلَّمَ الإنسانُ مع الجماعة، هل يجب على الجماعة أن يردُّوا عليه؟

الجواب: لا، وإن كان قد روى أبو داود أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرَهم أن يردُّوا على الإمام، ويُسلِّم بعضهم على بعض فمراده: أن يسلِّموا كما سلَّم بعد انتهاء سلامه، فيكون سلامُهم بعدَه كالردِّ عليه، وليس مراده أن يقولوا: عليك السَّلام، لأن ذلك يُنافي عملهم الذي كانوا عليه. وأما قوله: «ويُسلِّم بعضهم على بعض» فمراده أن كلَّ واحد يقول: السَّلام عليكم، فكلُّ واحد يُسلِّم على الآخر بهذا اللفظ؛ فاكتفى بسلام الثاني عن الرَّدِّ؛ هذا هو أقرب ما يُقال في رَدِّ هذا السلام، ولا شَكَّ أن المأمومين يُسلِّم بعضُهم على بعض

بهـذا، كما قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حينما كانـوا يرفعون أيديهم يُوْمِئُون بها قال: «عَلامَ تُوْمُونَ بأيديكم كأنَّها أذنابُ خيلٍ شُمْسٍ؟ إنمـا كان يكفي أحدكُم أن يضـعَ يده على فخذه، ثم يُسَـلِّمُ على أخيه مِن على يمينه وشماله» .

وهذا يدلُّ على أن السَّـلام يقصد به السَّـلام علـى مَن بجانبه، لكنه لما كان كُلُّ واحد يُسلِّم على الثاني اكتُفي بهذا عن الرَّدِّ، والله أعلم.(١)

❋❋❋

(١) انظر الشرح الممتع ٣/ ٢٠٨ . وفتح ذي الجلال والإكرام ٣/ ٤٨٢ . والشرح المختصر على بلوغ المرام ١/ ٥٩٣ . والتعليق على صحيح البخاري ٣/ ٥٤٩ . وشرح رياض الصالحين ٤/ ٣٨١ .

الفهرس

- المقدمة ٣
- من أذكار وأدعية الصلاة ٤
- باب ما جاء في تكبيرة الإحرام ٤
- باب ما جاء في أدعية الاستفتاح ٦
- فصل ٩
- فصل ١٧
- مسألة : هل هناك أدعية أخرى يُستفتح بها ؟ ٢٧
- مسألة : هل يجمع بين أنواع الاستفتاح؟ ٢٨
- باب ما جاء في التعوذ للقراءة ٣٠
- فصل ٣٤
- باب ما جاء في البسملة هل هي من الفاتحة ، أم لا ؟ ٣٧
- مسألة : هل البسملة آية من الفاتحة ؛ أو لا؟ ٤٠
- باب ما جاء في قراءة الفاتحة في الصلاة ٤٣
- باب ما جاء في التأمين ٥٢
- باب ما جاء في أدعية الركوع ٥٤
- فصل ٥٩
- فصل ٦١

■ فصل ٦٤
■ باب ما جاء في أدعية الرفع من الركوع ٦٦
■ فصل ٧٠
■ باب ما جاء في أدعية السجود ٧٦
■ فصل ٨٠
■ فصل ٨١
■ فصل ٨٢
■ فصل ٨٣
■ باب ما جاء في الدعاء بين السجدتين ٨٦
■ باب ما جاء في أدعية التشهد ٩٠
■ مسألة: هل هناك عباد لله فاسدون؟ ١٠٤
■ فصل ١١٠
■ باب ما جاء في الصلاة على النبي صَلَّىٰٓاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ١١٥
■ فصل ١٢٤
■ فصل ١٢٧
■ فصل ١٢٩
■ باب ما جاء في أدعية آخر الصلاة ١٣٢
■ فصل ١٤٣

- فصل ١٤٥
- فصل ١٥١
- باب ما جاء في التسليم ١٥٩
- مسألة: إذا قيل: على مَنْ يُسلِّم؟ ١٦١
- الفهرس ١٦٣

❊❊❊

التصميم الداخلي للكتاب
Tharwat Sultan
TharwatSultan@yahoo.com
للتواصل:
00201019530152